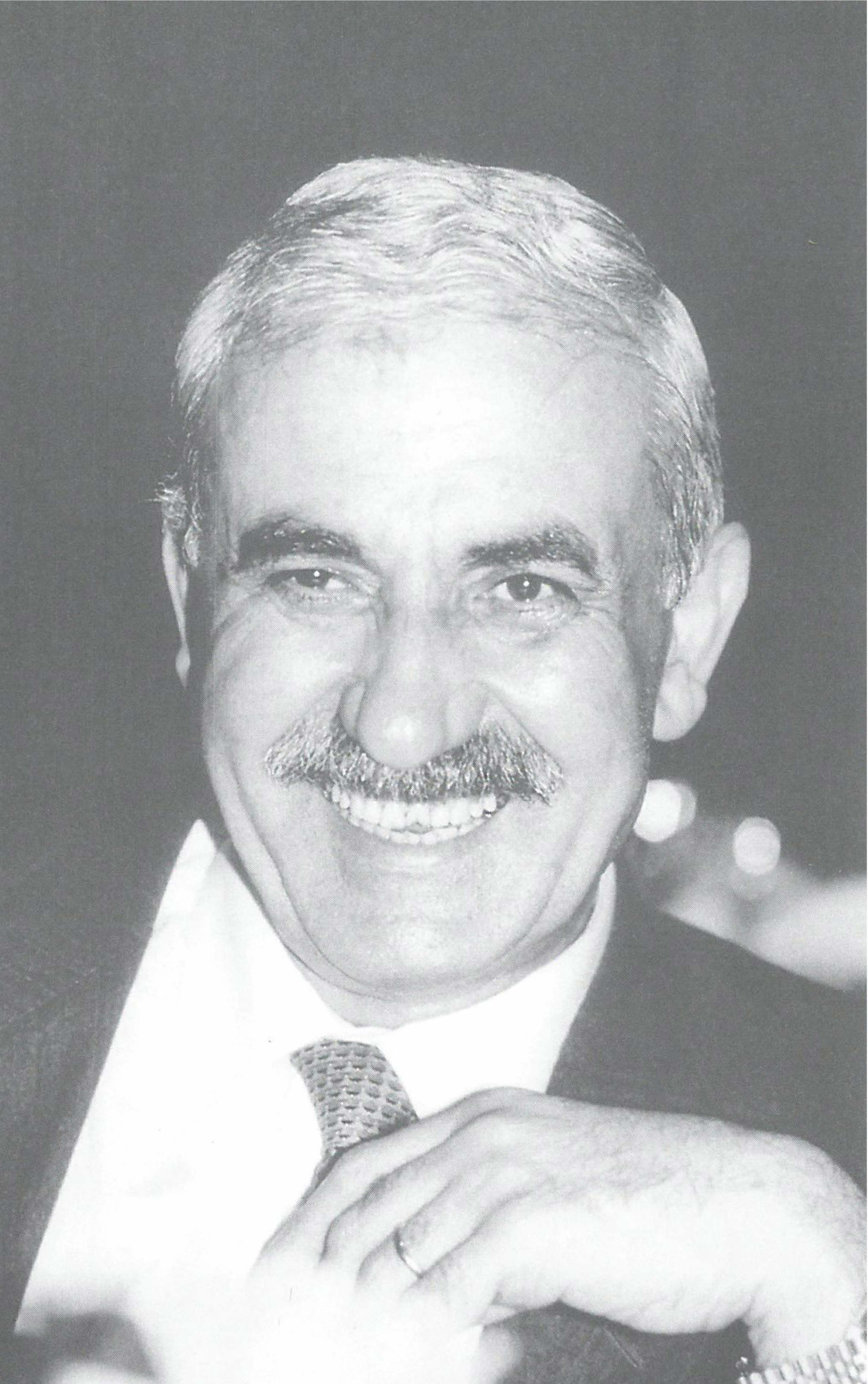
فـؤاد مطـر

حكيم الثورة

سيرة جورج حبش ونضاله







فؤاد مطر

(سلسلة اعماله الشاملة)

حكيم الثورة

سيرة جورج حبش ونضاله

شهادات
النهار

الطبعة الاولى، تشرين الأول 2008
ص. ب 226-11، بيروت، لبنان
فاكس 961-1-561693
darannahar@darannahar.com
ISBN 978-9953-74-208-3

الاهداء

إلى زوجتي إبنة يافا، امتثال، شريكتي في حياتي وطموحاتي وشريكتي في إنجاز هذا العمل منذ أن بدأ كفكرة وحتى صدوره ككتاب،

إلى كل فلسطيني استشهد من أجل فلسطين، أو صمد أمام عذاب الأسر والاعتقال،

وإلى كل يتيم أو يتيمة يكتوي مثل سائر أهل فلسطين بالناريْن: نار الاحتلال ونار الإنقسامات بين أبناء القضية الواحدة.

فؤاد مطر

المحتويات

ملحق

تقديم

جورج نقولا رزق الله حبش (1925-2008)
المبادئ تقود الرجال

في اللّد وُلد جورج نقولا رزق الله حبش سنة 1925* لعائلة فلسطينية ميسورة. بعد دراساته في فلسطين إلتحق سنة 1944 بكلية الطب في الجامعة الاميركية في بيروت، وتخرَّج منها سنة 1951 بعد وقوع نكبة بلده سنة 1948. كان جورج حبش طالباً مميَّزاً ذا نشاطات متعددة في الآداب والثقافة والموسيقى والرياضة والفنون... وكانت عائلته قد غادرت يافا بعد احتلالها الى اللّد، ومنها الى رام الله وعمان. جعلته نكبة وطنه يسلك الطريق السياسية منذ 1945، متسائلاً: كيف يمكن لعصابات صهيونية قليلة ان تهزم أمة كبرى؟ إبَّانذاك عرَّفه صديقه معتوق الأسمر الى قسطنطين زريق، فراح يتابع حلقاته الثقافية المعقودة تحت عنوان «القومية العربية وآليات نهوضها» .

في هذا السياق تبلورت لديه فكرة تأسيس تنظيم سياسي قوموي (مع هاني الهندي وآخرين)، موضوعه تحرير فلسطين من خلال قيام وحدة عربية. وإنطلاقاً من الفكر القومي العربي الذي روّجه ساطع الحصري وقسطنطين زريق وآخرون على إيقاع 1948، ظهرت سنة 1951 نواة «حركة القوميين العرب» في المدينة المفتوحة والحرة بيروت. هذه النواة (جورج حبش، وديع حداد، هاني الهندي، أحمد الخطيب، صالح شبل، حامد الجبوري) شاركت سنة 1951 في الإنتفاضة الطلابية اللبنانية المؤيدة لإقدام حكومة مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد، على

* يقال أيضاً سنة 1924.

إلغاء المعاهدة المصرية-البريطانية.

تعززت «حركة القوميين العرب» ما بين 1952و1958 جرَّاء الاحداث الثورية الكبرى (انقلاب مصر، تأميم القناة، قيام الجمهورية العربية المتحدة، إنقلاب 14 تموز/ يوليو 1958 في العراق وسقوط حلف بغداد، إنتفاضة لبنان ضد السياسة الاميركية ما بين 1957-1958). بعدئذ انتقلت الحركة من مؤتمر التأسيس الفكري الى مؤتمر التنظيم الذي إنعقد سنة 1956 في عمان، والذي انضم اليه رعيل ثانٍ (محسن ابراهيم، محمد الزيات، مُنيف فرج، ثابت المهايني، مصطفى بيضون...). ربطت «حركة القومين العرب» بين مطلبيْ الوحدة والتحرير، وشكلت قيادة قُطرية فلسطينية (وديع حداد، أسامة النقيب، رفعت سرحان، زاهي قمحاوي) ولجنة فكرية (وليد الخالدي، برهان الدجاني)، فيما مارس الدكتور حبش الطبابة في الاردن على مدى خمس سنوات، تفرَّغ بعدها للنضال السياسي وقيادة الحركة الآخذة في الانتشار (العراق، الكويت، البحرين، اليمن، الاردن، سورية، لبنان، السودان، ليبيا، المغرب...) والمتحالفة مع مصر الناصرية. سنة 1961 تزوج الدكتور حبش ابنة عمه هيلدا حبش (المولودة في القدس) ورُزقا ابنتان: ميساء (طبيبة) ولمى (مهندسة كيميائية).

إبان هزيمة 1967 تزلزل الفكر القومي العربي، الثوري الرومانسي، وتزعزعت أسسه السياسية، بعدما انكشفت الانظمة القوموية العاجزة عن مواجهة التحدي الكولونيالي والصهيوني. فكان تحوّل في «حركة القوميين العرب» نحو اليسار الاشتراكي، بعد وقوع انفصال 1961، إذذاك واءم جورج حبش بين المفهوم القومي والماركسية، باعتبار الأول إطاراً مرجعياً، والثاني مضموناً معرفياً. فكان الشرخ الاكبر: تيار متمركس بلا هوادة، وتيار قوموي موزَّع بين الناصرية والبعث، اللذين واصلا إنشراخهما وتصارعهما أكثر فأكثر، الى أن تراجعت القوموية وانبثقت الاصوليات الدينية-السياسية.

سنة 1967 أعلن حبش تأسيس «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» وانشقت عنها «الديمقراطية» و«القيادة العامة» وظل أمينها العام منذ تأسيسها حتى تنحيه عام 2000 بسبب وضعه الصحي. سنة 1968 إنضمت «الجبهة الشعبية» الى

«منظمة التحرير الفلسطينية» ، ثم انسحبت منها سنة 1974 بدعوى الاصرار على التحرير الكامل للتراب الفلسطيني. أُعتقل حبش في سورية سنة 1968 لمدة عام؛ فهرَّبه زميله وديع حداد من سجنه 1969، ليواجه إنشقاقاً قاده نايف حواتمة تحت ستار الديمقراطية. تسلّل حبش الى الاردن ليشهد مرحلة المقاومة المتصادمة مع الجيش الاردني والعاملة على خطف طائرات غربية وتفجيرها، حتى وقوع حرب اهلية في أيلول 1970 وارتحال المنظمات الفلسطينية من الاردن الى لبنان سنة 1970.

سنة 1972 تعرَّض حبش لأزمة قلبية كادت تودي بحياته، وجرى إغتيال الاديب غسان كنفاني. ثم تعرَّض حبش سنة 1973 لمحاولة اختطاف موسادية لكنه نجا وفقد رفيق نضاله الدكتور وديع حداد سنة 1978. وفي عام 1980 تعرَّض حبش لنزيف دماغي تجاوزه بارادته الصلبة. سنة 2000 خلَفَه في قيادة «الجبهة» ابو علي مصطفى الذي ما لبثت إسرائيل أن أغتالته سنة 2001. عاش حكيم الثورة متنقلاً ما بين عمان ودمشق حتى وفاته في 18/ 2/ 2008 في عمان.

خلافاً للقيادات الفلسطينية التي غادرت بيروت الى تونس، ذهب جورج حبش الى دمشق سنة 1982، وظل يراهن هناك عليها وعلى الاتحاد السوفياتي الذي أحبطه سقوطه سنة 1991. مع ذلك رفض إتفاق أوسلو والتطبيع العربي- الاسرائيلي (1993)، وآزر الحركات الاسلامية، لا سيما «حزب الله» في لبنان، على الرغم من علمانيته ومن إصراره على تحرير كامل فلسطين وإقامة دولة علمانية يتساوى فيها اليهود والفلسطينيون. بدأ حبش رومانسياً ثورياً وظل كذلك حتى وفاته. فهو من جيل إعتبر المثال الثوري - حتى وإن لم يتحقق - أهم من الواقع الذي يحول دون تحقيقه.

كانت زوجته هيلدا حبش الاولى في مواكبته، الاولى في افتقاده وفي الوفاء له ولمبادئه: كان رجلاً بمساحة وطن، حمل هموم شعبه صليباً على كتفيه، فمشينا معاً درب الآلام بعيداً عن صخب الحياة ومباهجها، يملؤنا الايمان بعدالة قضيتنا وقداستها... بقي الحكيم حتى اللحظة الاخيرة قابضاً على جمر مبادئه، بقي حتى اللحظات الاخيرة الثوري الحالم بعالم افضل. اعطى فلسطين عمره وقلبه ودمه،

فأعطته وفاءً وحباً وحفرت اسمه في ذاكرة التاريخ فغرسته سنديانةً ومشعلاً يُنير الدرب للأجيال». (**السفير**، 13/ 3/ 2008، ص 19).

فهو قائد لن ينتهي بمأتم حسب تعبير معاصره الدكتور صالح زهر الدين: «هكذا كان لي شرف التعرف الى كبيرين من امتي العربية...: المعلم كمال جنبلاط والحكيم جورج حبش. وكلاهما ساهم - من موقعه وفكره - في زرع بذرة النضال الوطني والقومي والانساني في نفسي - كما في نفوس رفاقٍ كثيرين معي - وتعهداها بالرعاية والإنماء والاهتمام اليومي، الموزَّع بين مجلة «الهدف» (التي كنت اعمل فيها منذ 1973) ومنزل المعلم كمال جنبلاط قرب «فرن الحطب» في المصيطبة (بيروت) (**السفير**، 11/ 2/ 2008).

أما الكاتب الفلسطيني، ماجد الشيخ فقد رأى جورج حبش قائداً بلا هالة شخصانية، ولكنه كاريزمي وديمقراطي، سيزيفي بامتياز: «في الانشقاقات التي قادت الى تشظية الجبهة جبهات نشهدُكم كان الحكيم حليماً، فلا هو صلب ذاته في اعواد الخطيئة ولا قاد رفاقه الى ترديات عصبوية مقيتة، تجعل من ذاتها أنا أعلى ومن الآخرين ذوات سفلية». ما كان الحكيم فردانياً لهذا لم تغيِّره الشخصية الستالينية... كان ديمقراطياً بامتياز، امتياز أن يكون - وقد يكون - قائداً بلا هالة شخصانية. (**السفير**، 12/ 2/ 2008).

بعد خروج حبش من موقع الامانة العامة لـ«الجبهة الشعبية» تابع ما كان بدأ يهيئ له، منذ مطالع تسعينات القرن العشرين من اجل إنشاء مركز الدراسات الفلسطينية (الغد) بقيادته. في تلك الفترة بالذات وقبل أن يتخطى موقع الامانة العامة، إتصل بي طالباً مني مشاركته في تأسيس هذا المركز... وحين قرر من جديد البدء بإنشائه منذ ثلاثة اعوام كما أظن اتصل بي مرة ثانية بوسائل متعددة... وألتقينا مجدداً ولمدة طويلة وأجرينا حديثاً مسهباً... وكان أعطى للمركز اسم مركز الغد وصدرت عنه بعض الكتب (كريم مروة، **نهار الشباب**، 13/ 2/ 2008).

في تحية الى الحكيم أشار الياس الخوري في **باب الشمس** الى يونس الذي خرج حياً من جوف الحوت الصهيوني، لكنه ظل يقارعه حتى آخر لحظة: «هذا هو جورج حبش الذي أحبه: ساحر وطفل منتصر ومهزوم، قائد يتعثر بأقدار شعبه،

وحالم أراد ان يصنع من النكبة الكارثة مدخلاً الى التغيير ومساحة لإعادة بناء الذات» (**نهار الشباب**، 3/2/ 2008).

فهد سليمان: عضو المكتب السياسي لـ«الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين» ، شخَّص الركائز السياسية لفكر جورج حبش بقوله: «لقد كان فلسطينياً في قوميته وقومياً في فلسطينيته، ليس بالمعنى الدارج من حرب 67 الذي ينطلق من استقلال النضال الوطني التحرري الفلسطيني ليثمر ما يواشجه مع محيطه، بل بالمعنى العضوي والسياسي المباشر الذي يتعاطى مع ملف الصراع العربي-الاسرائيلي ببعده الشامل، لكن إنطلاقاً من بؤرته المركزية في فلسطين. ومن هنا على الارجح ما يرمز اليه السهم المتجه الى فلسطين في شعار «الجبهة الشعبية» (**الحياة**، 10/ 2/ 2008).

في تحيته الى جورج حبش أبرز نايف حواتمه معنى النضال المشترك من أجل تحويل «اللاجئين» الى مُقاومين، وتحرير القرار الفلسطيني تمهيداً لتحرير فلسطين: «على هذا الدرب كان نضالنا القومي المشترك والموحَّد في سبيل حقوق شعوبنا وفي المقدمة الشعب الفلسطيني، بعد نكبتنا الكبرى عام 1948 التي عليها تَرتَّب تشتُّت شعب فلسطين في أكثر من 50 بلداً وضياع فلسطين» (**الحياة**، 30/ 1/ 2008).

أمين قمورية: إستذكر دموع جورج حبش عندما ألتقاه مع الياس الخوري في دمشق، ربيع 1998، وترك الكلام لضمير فلسطين. قال: «سقوط اللّد والانفصال بين مصر وسورية وسِقوط القدس هذه هي اللحظات المأسوية الثلاث في حياتي». (**النهار**، 29/ 1/ 2008).

كريم مروة: جورج حبش الحكيم الثوري «كانت الرومنطيقية الثورية السمة الغالبة في شخصيته... وكانت رومنطيقيته هذه عاملاً أساسياً في بقائه الشخص الاول في ظل التحولات التي حدثت في «حركة القوميين العرب»، لا بد من التنويه في هذا السياق من الحديث عن سمات جورج حبش بالقرار الشجاع الذي إتخذه من تلقاء ذاته بالتخلي في المؤتمر السادس لـ«الجبهة الشعبية» عن موقع الأمانة العامة...» (**نهار الشباب**، 3/ 2/ 2008، ص 5).

خالد حدادة: «في أربعينه نقول: الحكيم قام حقاً قام. أليس فِعْلُ القيامة ما

قام به الشهيد علاء رداً على مجازر غزة. فلننتظر رفاق وأخوة علاء وليس قمماً يلتئم فيها مَنْ لم يعد يملك حتى سيفاً، لأن تلك السيوف أصبحت البيت الابيض تقبع فوق أموال وثروات أمتنا وشعوبنا... في خزانة الادارة الاميركية وخزانة إسرائيل». (السفير، 11/ 3/ 2008).

سليم الحص: «كان مشهد غزة في شتاء عام 2008 مشهد الشعب الذي لا يُقهر. ولسوف يسجل التاريخ ان هذا المشهد كما كان مشهد الجنوب اللبناني في صيف 2006 مفصلاً في مسار الصراع العربي-الاسرائيلي، لا بل نقطة تحوّل في حياة الكيان الصهيوني. لقد فُجعت بنبأ رحيل وجه فلسطيني عربي مُميز ألهم اجيالاً من المناضلين، هو الدكتور جورج حبش». (السفير، 28/ 1/ 2008).

معن بشور: حارس الثوابت: «بإيمان يضاهي إيمان الاولياء، وبثبات قَلَّ نظيره وببساطةٍ نادرة، كان جورج حبش يتقدم من موقع الى آخر، لا يضيره الانتقال من بلد عربي الى آخر فبلاد العرب كلها وطنه، ولا من سجن الى آخر فالوطن العربي بات سجناً كبيراً، ولا ان يمضي ردحاً من حياته يعمل تحت الارض من اجل تحرير الارض التي نذر العمر من أجلها. (المصدر نفسه).

صقر أبو فخر: «جورج حبش هو الاسم الحركي لفلسطين، وكان دائماً ضميرها المعذَّب، وبوصلتها الصادقة وصمّام الأمان حينما يحتدم عجيج المنظمات والأنظمة. وكان يكفي أن يمسك بيد ياسر عرفات حتى يرتاح الفلسطينيون». (المصدر نفسه).

شفيق الحوت: «هل كان قديساً او ضميراً أو ظاهرة أو أو... لا هذا ولا ذاك، كان جورج حبش مناضلاً من فلسطين كما يجب أن يكون عليه المناضل» . (المصدر نفسه).

سمير الزين: «إختار جورج حبش أن يستقيل من «الجبهة الشعبية» مع أفول شمس اليسار، وكان موقفاً نادراً ان يُقدِم الرجل الاول في تنظيم تاريخي على الاستقالة من منصبه» . (المصدر نفسه).

علي بدوان: اول الشرارة اول الفكرة: «أنا مسيحي الديانة، إسلامي التربية، اشتراكي الفكر» .(المصدر نفسه).

ساطع نور الدين: «لم يبق من ذكرى جورج حبش سوى انه كان أخر الرواد المسيحيين للحركة الوطنية العربية التي مارست نضالاً حقيقياً لن يستطيع الاسلاميون منافسته أو بلوغ نتائجه ولو بعد قرون». (**السفير، 28/ 1/ 2008**).

حلمي موسى: جورج حبش الانسان «كان جورج حبش او الحكيم يأسر محيطه ومعارفه برقة قلبه التي تجعله وهو المُطالِب بالتصلب والتشدد مع الاعداء، مطواعاً شديد الرقة مع الاصدقاء» . (**السفير، 28/ 1/ 2008**).

ياسر نعمة: «طوبى للمناضلين، حامل الرايات مات، طوبى لفلسطين ابنها مات، طوبى للعروبة فتاها قضى». (**السفير، المصدر نفسه**).

عبد الباري عطوان: «إختلف الدكتور جورج حبش كثيراً مع رفيقه وخصمه ياسر عرفات، وكان المجلس الوطني الفلسطيني ساحة نزال ساخنة بين الرجلين: الاول يمثل وجهاً تصالُحياً مع الانظمة وقراءة واقعية للمعادلات الدولية حسبما كان معروفاً عنه؛ والثاني كان صاحب مدرسة نضالية لا تساوم على الحق ولا تبدي أي مرونة مع الاعداء ولا تفرِّط بالثوابت او ببعض منها ولو من قبيل التكتيك». (**القدس العربي**، لندن 28/ 1/ 2008).

راسم المدهون: «رجل الوحدة الوطنية وأحد ضماناتها الكبرى في ذاكرة فلسطين ووجدانهم الجمعي. جورج حبش هو حكيم الثورة وأحد أبرز قيادات العمل الوطني منذ الخمسينات» (**الحياة، 5/ 2/ 2008**).

غسان الإمام: «مسيحيون ثلاثة رفضوا الرهبنة، تزوج الثلاثة العروبة: حلم قسطنطين زريق بديمقراطيتها، حلم ميشيل عفلق بدولتها، حلم جورج حبش بثورتها». (**الشرق الاوسط، 21/ 2/ 2008**).

عبد الحسين شعبان: «كان رمزاً لجيل التمرد والامل» (**القدس العربي**، لندن، 1/ 2/ 2008).

غالب أبو مصلح: «تنحى عن قيادة الجبهة في سنة 2000، لكنه بقي المرشد الفكري والاخلاقي والروحي لمناضلي الجبهة بشكل خاص، وسيستمر تراثه في إرشاد رفاقه ومحبيه بعد غيابه». (**السفير، 24/ 1/ 2008**).

طلال سلمان: مات جورج حبش مرتين: الثانية لأنه دُفن خارج أرض فلسطين،

لكن الوحدوي فيه سيصبر كما في حياته». (**السفير، 28/ 1/ 2008**).

رشيد درباس: «ظل جورج حبش مَثَلي الاعلى إذاً وكنت اتمنى لشدة حبي له أن أراه واقفاص على شرفة قصر الضيافة في دمشق ممسكاً بيد الزعيم الخالد جمال عبد الناصر، داعياً معه الى وحدة اقطار الامة، وذلك تلبية لخيال جامح حسد جورج حبش جزءاً منه في مسيرته. (**السفير، 30/ 1/ 2008**).

فايز رشيد: «علمْتَنا كيف يكون النقد، بادئين بأنفسنا، وكيف ننقد الآخر، لا لتحطيمه بل من اجل إصلاحه» (المصدر نفسه).

غسان شربل: الارهابي الناصع: «كان جورج حبش شديد الحضور في دفاتر النصف الثاني من القرن الماضي، كان حبش ارهابياً بالمعايير الدولية؛ لكنه كان بالتأكيد الارهابي الحالم الناصع» (المصدر نفسه).

بشارة مرهج: ثورة مستمرة «بهذه الروحية الثورية الصادقة تعَامَل مع القضايا التي واجهتْه خلال مراحل حياته الزاخرة بالعمل والتضحيات» (**السفير، 13/ 3/ 2008**).

الرئيس محمود عباس: «برحيل القائد التاريخي الدكتور جورج حبش، مؤسس «حركة القوميين» و«الجبهة الشعبية»، خسر الشعب الفلسطيني واحداً من كبار المناضلين وجيل المؤسسين الطليعيين للحركة الوطنية الفلسطينية المعاصرة الذين بعثوا فلسطين من تحت رماد النكبة الاولى عام 1948. (**الحياة، 28/ 1/ 2008**).

وبعد، سالت من المحابر ومن المآقي كلمات ودموع على ذكرى طبيب عربي ثوري، خرج من اللد ولم يعد؛ حوّل عيادته الى قيادة، وصوَّب السهم الى فلسطين مُصراً على توجيهه الدائم نحو الهدف، فراح السهم ينغرس في أرض فلسطين، ولو منكسراً أحياناً. حكمة الثورة تكمن في متابعتها حتى النهاية. ليس في التاريخ ربع، ثلث، نصف ثورة. الثورة وحدها تصنع تاريخها.

وحين إستوى جورج حبش في «مركز الغد»، متسائلاً لماذا فشلنا رغم كثافة تضحياتنا؟ إكتشف انه كان يخوض معركة لا متكافئة مع الاستعمار العالمي، وأن تضحيات الفلسطينيين وحدها لا تكفي. هنا أيضاً لا بد من نهوض الأمة برمتها ومن إصرارها على تحرير فلسطين، بعدما صار الفلسطينيون سهماً في قوس العالم.

بمثالية الثورة اعطى جورج حبش معنى آخر لفلسطين، وهذا ما لم يفهمه العقل الاسرائيلي حين وصف هذا المقاوم الفلسطيني بأنه إرهابي متناسياً أن يسأل: لكن ما هي اسرائيل والغرب الذي يصر على إبقائها قوساً في يده؟

وُلد في أرض عربية، ومات على أرض عربية، والارض العربية تعرف ما الذي يجمعها ويفرِّقها، ومن ينتصر فيها ومن ينهزم. لقد إنتصر جورج حبش في موقفه، بقدر ما كشف الواقع هزيمة العروبيين اللفظيين.

إن الغد لناظره لقريب. «الجبهة الشعبية» ما برحت في فلسطين، رغم استشهاد خليفة حبش الاول أبي علي مصطفى، وسجْن خليفته الثاني أحمد سعادات، ومكوث العشرات من كوادر «الجبهة» في السجون الاسرائيلية الى جانب الألوف من الأسرى الفلسطينيين وغير الفلسطينيين.

إن إسرائيل سجن، ولكن من السجن أيضاً يخرج الأسرى، ويتحولون مجدداً الى ثورة مستمرة. فمن يسجن مَنْ هناك؟ وهنا في الوطن العربي ما برحت الامة على موعدٍ مع اجيال ثورية، وحدوية، جديدة، تُولد من قلب المبادئ التي تَمسَّك بها رجال من طراز جورج حبش ومجايليه.

خليل أحمد خليل

بيروت، 14/ 4/ 2008

تحية تكريم لذكرى "حكيم الثورة"
الذي ضيّعوا وطنه... وضاع بيته

يوم صدر هذا الكتاب للمرة الاولى كان الصدور عام 1983 في لندن، كما أن الإصدار كان متأخراً أيضاً سبع سنوات، ذلك أن الكتاب كان جاهزاً للطبع لكن ظروف الحرب الهمجية التي عصفت بلبنان بدءاً من منتصف نيسان/ أبريل 1975 واستمرت متقطعة بالهمجية نفسها بضع سنوات، حالت دون استكمال عملية الطبع. ثم حدث انني غادرتُ الوطن المُبتلى بالهمجية والمتعصبين البائعين الكرامة المتلاعبين بأقدار الوطن اللاهين عن جوهر القضية. وفي العام 1983 وكان إستقر بي المقام في لندن والتي طال هذا المقام فيها تسع عشرة سنة، اخرجتُ صورة عن المخطوطة، أي سيرة الدكتور جورج حبش، ونشرتُها في كتاب يحمل تسمية «حكيم الثورة. قصة حياة الدكتور جورج حبش» .

كان هذا العمل هو الاول من نوعه، وقد عرف قارئو الكتاب بعد صدوره وتوزيعه بالقدر الذي تسمح به ظروف التوزيع وسيوف الرقابات العربية المتشددة وبالذات على كتابات الدكتور جورج حبش و«الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» التي كان ذاع صيتها كـ«خطّافة للطائرات المدنية» قصة هذا الفلسطيني الارثوذكسي الواقف في استمرار على خط مواجهة اسرائيل.

وقد حدث في السنوات بين تحضير الكتاب للطبع في بيروت وإرجاء ذلك سبع سنوات بسبب ظروف الحرب اللبنانية ورحيلي عن بيروت الى لندن بعد سنتين بين القاهرة وباريس، أن تعدلت بعض الشيء رؤى الدكتور جورج حبش وبالذات في ما يتعلق بسورية التي اضطرته الحرب في لبنان وعليه الى الانتقال

للإقامة في دمشق.

لكن لا الدكتور حبش ولا زميلي بسَّام أبو شريف إتصلا بي لكي يقولا ما معناه إن الظروف المستجدة ربما توجب تعديل بعض المفردات. وصدر الكتاب في لندن لأُفاجا بعد بضعة اشهر من صدوره أن الدكتور حبش عاتب عليَّ. ولماذا العتب ما دام الكتاب عبارة عن لقاءات مسجَّلة معه وكان مستشاره الإعلامي بسَّام ابو شريف إطَّلع في حينه على المادة بعد تفريغها وكتابتها وذلك قبل دفعها الى المطبعة. لكن هذا كما أشرت حدث قبل إندلاع حرب لبنان وما إستتبعها من تداعيات.

تقبلتُ «العتاب الحبشي» بروح طيبة وذلك للمكانة التي في نفسي أصلاً للدكتور حبش الذي لم تعد العلاقة معه بعد إنجازي فكرة كتابة قصة حياته مجرد علاقة كاتب وإعلامي بقائد فصيل ثوري وإنما غدت علاقة بين صديقين قائمة على التقدير المتبادَل.

نفذت الكمية التي طبعتْها الدار الناشرة من الكتاب لشدة شغف المواطن بمعرفة المجهول من سيرة هذا المناضل الفلسطيني المسيحي الذي يرفع شعار التحرير ويكابد من اجله، وبات كثيرون يتصلون طالبين الكتاب.

وبعد رحيل الدكتور جورج حبش محزوناً على رحيله كوني فقدتُ صديقاً وليس فقط مجرد بطل أحد مؤلفاتي، إرتأيت كتحية تكريم لذكراه أن أُرفق الترحم عليه بإعادة نشر الكتاب الذي يروي فيه قصة حياته للمرة الاولى، وذلك ضمن سلسلة أعمالي الشاملة. وهذه المرة يكون النشر في بيروت.

الى ذلك ولمناسبة رحيل الصديق الدكتور جورج حبش وجدتُ نفسي أفترض أن صدمة فقدان بيته في اللد عجّلت في مضاعفات وضعه الصحي وزادت من منسوب الإحباط عنده.

كما وجدتُ قلمي يكتب لصحيفة **الشرق الأوسط**-لندن وتحت عنوان «حكيم الثورة الذي ضيّعوا وطنه.. وضاع بيته» مقالاً نشرتْه الصحيفة حول الوطن الصغير، (أي البيتُ الذي خُطف كرمز للوطن الكبير الذي سُلِب) نشرَتْه

الصحيفة في مارس/ آذار 2004 على النحو الآتي:

«ليس هنالك ما هو أبقى في الذاكرة مثل البيت الذي عاش فيه الإنسان في المدينة أو البلدة أو القرية التي فيها هذا البيت. وحتى إذا كان هذا البيت عبارة عن غرفة أو إثنين فإن وطأة فقدانه أو الإبتعاد عنه تبقى كثيرة الإيلام للنفس. وفي إستمرار كنا نسمع من جيل النكبة الفلسطينية الأولى وبعدما إستقر بهم المقام في الديار العربية قولهم إن في الحلق غصة وفي القلب حرقة على البيت الذي تركه هذا الفلسطيني أو ذاك هرباً من عدوان العصابات الصهيونية.. وكانت تلك غلطة كبرى إستوعب خطورتها جيل ما بعد هزيمة 1967 وإستوعب الخطورة أكثر وأكثر فلسطينيو زمن الإنتفاضة الذين يرفضون مغادرة البيت والبلدة والأرض على نحو ما يريد الشارونيون ذلك ضمن مخطط التهجير لكي تخلو فلسطين من الفلسطينيين وتندثر الهوية الى الأبد.

وما حدث للفلسطينيين حدث للبنانيين والعراقيين والسودانيين ولأخرين كثيرين بين ديار الخليج وقفار المحيط وجدوا أنفسهم في لحظات فوضى أو إقتتال أو إقتصاص يتركون البيت والبلد ويغادرون إلى حيث في إستطاعتهم العيش بالحد الأدنى من عزة النفس. ولطالما سمعْنا من سوداني يقيم في إحدى المدن الأميركية أو الكندية أو البريطانية الكثيرة الرفاهية والرقي كلاماً يتحسر في أسى على نفسه لأنه بعيد عن البيت الذي يفتقد إلى كل وسائل العصر والواقع على شارع ترابي. وسمعْنا الأسى نفسه من عراقيين ولبنانيين ومصريين يحلمون حتى في ساعات اليقظة بالبيت والحديقة الصغيرة والترعة والضفة على جانبيْ النيل وبردى والوزّاني والفرات ودجلة ويتحدثون عن هذه الضفاف بمفردات عابقة بشاعرية عفوية ومن دون أن يستوقفهم أن ضفاف «الدانوب» و«التايمز» و«السين» وبحيرة جنيف هي ذروة الترتيب والرقي والنظافة على عكس ضفاف الأنهر والبحيرات العربية. وعندما كنا نقول أمام أحد من هؤلاء المهاجرين بالإضطرار وليس بالإختيار ما الذي يوجب هذا الحنين وأنت تنعم بما هو ليس متوفراً في بلدك؟ وهل من المعقول هذا الحنين إلى البيت الأبوي وتراب الشارع والهجير والمياه غير النظيفة ووسائل الترفيه البدائية بينما أنت هنا في العالم الأكثر تمدناً وتطوراً واحتراماً للذات تعمل

وتتطبب وتتيح الفرصة أمام الأبناء والبنات من أجل أن يكون مستقبل كل منهم مضموناً... إننا عندما نقول ما أوردناه نسمع من أي من هؤلاء جواباً شبه موحّد المفردات خلاصته أن من يفقد بيته الأبوي يفقد أعز ما لديه وأن التعلق بالبيت الأول هذا هو بمثل أن الحب الحقيقي هو للحبيب الأول. وأنا شخصياً إفتقدتُ والدي عام 1976 بعدما شعر أن الهمجيين اجتاحوا المنطقة وأصبح بيت عمره تحت قبضتهم فأصابته علة فقدان البيت وقضى بعد أيام. كم أنني أفتقده للسنة الثانية والثلاثين على التوالي وأشعر بالطمأنينة عندما أغسل قبره بماء الورد وأقرأ الفاتحة على روحه بينما رائحة البخور تعبق من أجواء القبر.

يطول الكلام في الحديث عن هذه العلاقة الوجدانية بين الإنسان وبيته الأول وكيف أن هذا البيت يبدو بالنسبة الى فاقدي الوطن أمثال الفلسطينيين هو فقدان الأمل في العودة. ومناسبة هذا الكلام أن الدكتور جورج حبش الذي إصطلح رفاقه وعارفوه وقادرو سيرته على تسميته «حكيم الثورة» والمطلوب من سورية إبعاده مع آخرين وإلاَّ فإنها تكون ترعى الإرهاب ومن الضروري إعلان الحرب عليها إلاَّ إذا هي اعتمدت السلوك الليبي الذي لا مثيل لمرارته على النفس، فَقدَ البيت الأبوي الذي وُلد فيه ونشأ قبل أن تحط الرحال به في بيروت طالباً في الجامعة الأميركية ثم واحداً من زعماء الثورة الفلسطينية في زمن كان النضال الفلسطيني ظاهرة تستوجب التقدير. والذي حدث أنه في زحمة الإجتياح الشاروني للبشر والحجر والشجر بين القدس وغزة وفي استمرار الحصار للرمز الأعلى في السلطة الوطنية الفلسطينية ثم تطوير العدوان بحيث يشمل بناء «جدار شارون» على أرض الغير بمثل «خط بارليف» على أرض مصر ثم نهْب المصارف في رام الله وبأسلوب مقتبس من مافيات نيويورك وشيكاغو وغيرهما... في هذه الزحمة أتى نبأ من الوطن المغلوب على أمره من جانب الضمير العالمي مفاده أن «دائرة أراضي إسرائيل» المسؤولة عن الأراضي التي إستولت عليها الدولة العبرية بعد فرْض هذه الدولة بفعْل المؤامرة الدولية والأمر الواقع والتي، أي الأراضي، مملوكة من اللاجئين الفلسطينيين الذين غادروا الديار في زمن نكبة 1948، عرضت للبيع في مناقصة مطلع يناير من هذا العام بيت الدكتور جورج حبش في «اللد» للبيع

وأن المناقصة رست على يهودي مغربي قام بتحويل بيت «حكيم الثورة» إلى بيت عسكري بغرض طمس معالمه القديمة. كما أن بلدية «اللد» تشجيعاً منها لليهودي المغربي قامت بشق شارع جديد بالقرب من البيت كي لا يشقى الشاري في الوصول بمثل ما كان يشقى أهل جورج حبش ويشقى معهم.

عندما تأملتُ في هذه الواقعة عادت بي الذاكرة إلى ما سبق سماعه من الدكتور حبش يرويه عن البيت الأول في «اللد» وذلك خلال واحدة من جلسات حوار طويلة معه قبل ثمان وعشرين سنة، في واحد من «بيوته» العابرة في الشتات، انتهت كتاباً حول قصة حياته نشرتهُ عام 1984 (هو هذا الكتاب بطبعته الجديدة ضمن سلسلة أعمالي الشاملة). ولقد فاجأني، وهو الذي كان حديث العالم زمنذاك وبالذات لأن عناصر من «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» التي أسسها بدأت عملياً، وقبل أسامة بن لادن بسنوات، أسلوب التحدي الفعلي للولايات المتحدة ودول أوروبا من خلال خطف الطائرات وتفجير بعضها في «مطار الثورة» في الأردن، أنه يتحدث بوجدانية وحنين إلى بيته في «اللد» بمثل وجدانية وحنين كل الذين أشرنا إلى حالاتهم وكيف أنهم وهم في البيت المريح في ديار الإغتراب والشتات يذوبون شوقاً إلى البيت الأول.. حتى إذا كان عبارة عن غرفة أو غرفتين بمثل بيت جورج حبش. ولا بد أن القارئ سيشاركني المفاجأة والدهشة وهو يقرأ هنا ما سمعتُه قبل 28 سنة (عند صدور الكتاب عام 1998) من «حكيم الثورة» عن بيته. ومما قاله متغنياً بالبيت الذي إنتهى بعد ذلك الحوار معه بحوالى ثلاثة عقود مُلكاً ليهودي مغربي ليفقد بذلك «حكيم الثورة» ملكية البيت بعدما أفقدوا بني قومه وأفقدونا معهم أحقية الوطن، كان الآتي:

«إنني وأنا أتحدث معك الآن ترتسم في ذهني صورة اللد وصورة يافا وصورة القدس. أتذكّر بيتنا في اللد الذي كان عبارة عن غرفة واحدة مبنية ننام فيها. وأمام الغرفة مصطبة، ثم قطعة أرض صغيرة. أتذكّر شجرة التوت العالية أمام بيتنا والتي كنا ونحن صغار نتسلق لنأكل من ثمرها. أتذكّر أيضاً شجرة اللوز، وغرسة الورد والفلة الصغيرة أمام المصطبة. أتذكّر بيوت الخشب وحائط الصفيح الذي كان يفصل بيننا وبين جيراننا. أتذكّر بيوت الخشب وحائط الصفيح الذي كان

يفصل بيننا وبين جيراننا. أتذكّر جيراننا أل حنحن وآل سيف الدين. أتذكّر الشارع الرئيسي في مدينة اللد والشوارع المتفرعة. أتذكّر الطريق التي كنا نمشي عليها لنصل إلى المدرسة الإبتدائية. أتذكّر المدرسة نفسها بمدخلها وسُلّمها وبوابتها وبابها. أتذكّر مدير المدرسة توفيق أبو السعود كيف كان يمشي وكيف كان يخاطبنا. أتذكّر سوق المدينة والشارع الذي يؤدي إلى السوق. معالم الدكاكين واضحة الآن في ذهني كما لو أنني هناك الآن. إنني أرى اللد في هذه اللحظة بالوضوح الذي أرى فيه حي صبرا حيث نحن الآن، أو مخيم شاتيلا. (إثنان من مخيمات اللاجئين الفلسطينية في لبنان).

«واللد ليست قرية، كانت مركز لواء، ولذا فهي أقرب إلى أن تكون مدينة صغيرة.

للمناسبة أتذكّر نكتة كانت شائعة في ذلك الوقت وخلاصتها «إن اللد هي الدولة الثامنة» على أساس أن سبع دول خاضت الحرب وأن اللد كانت تعتبر نفسها، أو على الأصح يعتبرها سكانها، دولة قائمة بذاتها.

«إن اللد في الواقع هي إحدى المدن الصغيرة في فلسطين. وهذه المدن هي: الرملة، صفد، رام الله، جنين. أما المدن الكبرى فهي القدس ويافا وحيفا. وميزة أهل المدن الصغيرة في فلسطين أنهم أكثر التصاقاً بالأرض والوطن ربما لأنها مدن زراعية. والذي يعيش من الأرض يكون أكثر تمسكاً بها من غيره.

«وأتذكر الآن كيف كنا ننظر إلى بعض عائلات اللد من الأغنياء. لم نكن في ذلك الوقت نعرف الكلمات التي أصبحت معروفة بعد ذلك، «إقطاعي» و«بورجوازية». ولذا كنا نطلق على هؤلاء وصف «الكبار» وكنا نحن «الصغار» نشعر بعقدة حيال هؤلاء. و«الكبار» هؤلاء كانوا إما أصحاب متاجر أو مُلّاك أرض.

«الأكثرية في اللد من المسلمين. وعموماً إن المسيحيين في فلسطين أقلية. وفي أي حال إن الطائفية في فلسطين ليست حادة. وكان الجميع يلتقون في وجه الخصم المشترك. كان هناك بالفعل تعايُش. وإلى حد ما كانت العادات والتقاليد واحدة...» .

طال حديث الذكريات مع «حكيم الثورة». وقصة حياته في مجملها تشكل إجابة عن السبب الذي يجعل الفلسطيني يستعذب الإستشهاد عندما يُستلب منه الوطن ويرْفض مطلبه في حق العودة، وفي أن تكون له دولة على بعض الوطن ولها عاصمة فيها الحرَم الثالث، ثم يبدأ الجرف والاغتيال والتدمير والحصار وبناء الجدار والتملص من كل الإتفاقات، واستعماله ورقة رابحة في الإنتخابات الرئاسية الأميركية وبما يكون مردود هذه الورقة لمصلحة إسرائيل وضده كإنسان صاحب حق مسلوب. ولو أن الدكتور جورج حبش ليس في الوضع الصحي الصعب ويخطو نحو الثمانين لكان إنتسب إلى ركب الإستشهاديين وهو يتبلغ بأن حتى البيت الصغير في اللد قد إنتهى أمره إلى يهودي مغربي سيتباهى بأنه بات يملك بيت «حكيم الثورة» الذي طالما كان يحلم بأن «الجبهة الشعبية» ستقوده إلى فلسطين المحرّرة فإذا بالأمور تسير في إتجاه فقدان الوطن وبعثرة القضية وضياع البيت.

وقبل هذه المقالة كانت الخطوة اللافتة المتمثلة بتقديم الدكتور حبش، يوم الخميس 27/ 4/ 2000، استقالته كأمين عام لـ«الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» وتلاوته بنفسه بيان الاستقالة، موضع التقدير له. وكواحد من قادري هذه الخطوة في زمن تمترُس الزعامات السياسية والحزبية بالمنصب كانت لي في صحيفة **الشرق الأوسط**/ لندن في حينه المقالة - التحية الآتي نصها:

«في يبوبيله الماسي قرر الدكتور جورج حبش الذي ملأ الدنيا العربية من دهاليز بيروت إلى جبال ظفار إلى الصحراء الأردنية حيوية ونضالاً وتبشيراً وتفجيراً للطائرات ورعياً لعمليات خطة الطائرات المدنية من المطارات الدولية واستقطاباً لمئات الثوريين من شتى القارات، أن يُنفذ ما كاد الرئيس جمال عبد الناصر ان يقدم عليه بعد هزيمة الخامس من يونيو (حزيران) 1967 لو لا أنه ما لبث أن عاد عن قرار التنحي بعدما كان وجد في التنحي ما يريح ضميره بصفة كونه مسؤولاً كرئيس للجمهورية عن الهزيمة. وبعودته عن قرار التنحي لم يعد في استطاعته النزول إلى الجماهير والعمل في وسطها كمناضل، وهو ما أوحى به عندما قرأ بنفسه خطاب التنحي الشهير مبثوثاً عبر الاذاعات ومحطات التلفزيون.

لم يأتِ قرار الاستقالة الحكيمة للدكتور حبش نتيجة الوضع الصحي، ذلك أن الصحة ليست على ما يرام منذ حوإلى ربع قرن ومع ذلك لم يستقل. ولم يأت بسبب عامل السن لأن الثوريين لا يعترفون - على ما ألفناه في معظمهم من ماوتسي تونغ إلى فيديل كاسترو إلى كثيرين في العالم العربي - بالشيخوخة ويتمسكون بالسلطة على أساس أن الواحد منهم صاحب مشروع ولا ينتهي دوره قبل إنجاز هذا المشروع.

ولكن الإحباط من جهة وتلاشي ظاهرة الدولة الرافضة التي يمكن أن تستضيف الرافضين من جهة أخرى هما السبب وراء قرار الدكتور حبش.

ما يمكن قوله بالنسبة إلى الشق الأول المتعلق بالإحباط هو أن «الجبهة الشعبية» التي أخفق الدكتور حبش في إعادة توحيدها، ربما لأنه لم يبادر إلى ذلك، وتحولت إلى شظايا، لم تعد تستقطب الجماهير الفلسطينية وبذلك باتت تراثاً ثورياً ولم تعد رمزاً للعمل الثوري. ولو أن أعادة توحيد هذه «الجبهة» التي صارت رمزاً للعملية الانفصالية تحققت لكانت «الجبهة» في ظل الظروف الحالية قوة معارضة ضاربة، لها كلمتها وشأنها، أو في الحد الأدنى كانت هي البديل لـ«حركة حماس» أو بقوة هذه «الحركة». ولكن التوحيد لم يحدث وبقيت «الجبهة الشعبية» جبهات لكل واحدة منها رؤية وأسلوب عمل وطريقة في الولاء.

وبطبيعة الحال فإنه عندما لا تحدث عملية التوحيد في حياة الرجل التاريخي لـ«الجبهة» فإن ذلك يسبب معاناة حقيقية للرجل الذي هو الدكتور جورج حبش. ونقول ذلك مع الأخذ في الاعتبار أن الأبناء الذين غادروا منزل العائلة (ونقصد بهؤلاء الذين إنشقوا عن «الجبهة» وأبزرهم نايف حواتمه وأحمد جبريل) ليستقلوا في منازل خاصة بهم لم يؤكدوا بالممارسة أنهم كانوا محقّين في خطوتهم الانفصالية، فلا «الديمقراطية» كانت ديمقراطية وأما «القيادة العامة» فكانت خاصة جداً. واذا جاز القول فإن انشقاق الرفيقين الأكثر حيوية لجورج حبش وهما نايف حواتمه واحمد جبريل كان مثل انفصال سورية عن مصر، وهو انفصال كان من الممكن تجاوزه لو أن الدكتور حبش استرضى الرفيقين، أو أن الإثنين ارتضيا أن يبقيا ضمن مجموعة الرجال الثانين في «الجبهة» ويتخلى كل منهما عن تطلّعاته في

أن يكون الرجل الأول في تنظيم منشق على أن يكون واحداً من الحلقة المحيطة بالرجل الأول في تنظيم موحَّد.

وعلى صعيد الإحباط أيضاً فإن ما يمكن قوله هو أن حب الانعتاق من وطأة الرجل التاريخي أصاب بعض الحواريين الصامدين إلى جانب الدكتور حبش وهو يواجه محنة الانشقاقات. وإذا كان هؤلاء ومن بينهم أبو علي مصطفى وبسّام أبو شريف لم يسيروا على خطى الرفاق الذين انفصلوا، إلاّ أنهم غادروا السرب في أي حال وبدأوا التحليق خارجه. ويوماً بعد يوم سيتكاثر عدد الذين يغادرون السرب ياساً من تحقيق الحلم الثوري المستحيل أو يأساً من البقاء في الشتات، بل يجوز القول إنهم يغادرون ونفوسهم حزينة على ما آلت إليه الحال، لكنهم في الوقت نفسه يرون الإقرار بالأمر الواقع ليس بالضرورة أن يكون استسلاماً. والجامع المشترك بين هؤلاء وبين الرجل التاريخي، أي الدكتور حبش، هو الإحباط. ومثل هذا الأمر لا علاج له، ولو كانت هنالك وسائل لتدارك هذا الأمر لكان سلكها الجميع.

هذا على صعيد الإحباط. أما على صعيد تلاشي ظاهرة الدولة التي يمكن أن تستضيف الرافضين لما آلت إليه القضية الفلسطينية وتمنحهم الرعاية والاهتمام وحرية الحركة والتعبير إضافة إلى الملاذ الآمن. فإن ما يمكن قوله هو أن الدكتور حبش بات مقتنعاً أكثر من أي وقت مضى بأن كل الدول الصديقة لـ«الجبهة» أو التي تستفيد من ثورية «الجبهة» وتوظفها بغرض النكاية أو التلويح بالتهديد أو تُبقي عليها كمخزون ثوري لاستعماله عند الضرورة في عمليات عنف... إن كل هذه الدول استدارت وباتت ترى في «الجبهة» ما يشبه العبء يعزز ذلك أن الخارجية الأميركية تستعمل تقريرها السنوي الشهير المتعلق بالإرهاب للضغط على هذه الدول. وبطبيعة الحال فإنه بسبب هذه الإستدارة ضاقت رقعة التحرك وانكمشت فسحة الأمل فضاقت تبعاً لذلك رقعة «العيش الثوري» أو بتعبير أصحّ «العمل الثوري» ولو في إطار التعبير والخطابة في المهرجانات.

وبطبيعة الحال فإنه عندما يرى الدكتور حبش أن قلاع الاستضافة الثورية لم تعد لأسباب موضوعية على السخاء الذي كانت عليه في الماضي، فإن من حق تاريخه عليه البحث عن رؤية جديدة. وسورية هي آخر قلاع الاستضافة التي نشير إليها،

وهي كما هو واضح في صدد إعادة ترتيب البيت داخلياً لتأمين خلافة الدكتور بشّار الأسد لوالده حافظ الأسد وإحداث نقلة نوعية في النهج الاقتصادي وفي تعاون وثيق مع الولايات المتحدة يستتبع التسوية السورية - الاسرائيلية المحتملة، ولو إن الدكتور حبش وجد الدولة الملاذ التي من على أرضها يواصل ممارسة رؤاه الثورية حتى اذا كانت هذه الدولة في قلب جنوب شرق آسيا وليس على مشارف فلسطين لكان استمر يمارس ما يمكن ممارسته من النضال واستمر محتفظاً بالأمانة العامة. لكن كل هذه الدول التي يمكن أن تستضيف ثوريين تاريخيين من ايران إلى الجزائر إلى ليبيا إلى اليمن إلى افغانستان إلى كوبا إلى العراق.... إما أنها استدارت بالكامل أو أنها على طريق الاستدارة. ولو أن هذه الدولة التي بين الدكتور حبش وقيادتها السابقة روابط ثورية كانت على صمودها غير المجدي السابق لكان آثر الانتقال اليها على الاستسلام للأمر الواقع الفلسطيني في شكل خاص والعربي في شكل عام.

جاءت خطوة الدكتور حبش يوم الخميس 27 أبريل (نيسان) 2000 والقاضية بإعلان استقالته من الأمانة العامة لـ«الجبهة» في الوقت المناسب وبعد أن بلغ التساقط الثوري في العالم الذورة أشخاصاً وأنظمة وايديولوجيات. وجاءت بمثابة صيغة وسط بين المكابرة والعناد وبين الاستسلام للأمر الواقع. كما أنها جاءت في روحيتها وفي طيات مفردات رسالة الوداع التي تلاها الدكتور حبش في افتتاح المؤتمر العام بمثابة تفويض يأخذ طابع الفتوى من جانب الرجل التاريخي للذين ما زالوا حائرين داخل هذا التنظيم الثوري بأن يخوضوا غمار العملية السلمية إذا هم اقتنعوا بها لأنه لا مجال لسواها. وهو باستقالته حفظ مقامه الثوري وصان تاريخه وحلّ معضلة جمهور «الجبهة» الذي بات قادراً على أن يمارس خياراً سياسياً كانت ايديولوجية «الجبهة الشعبية» تحول دونه.

ولأن تجربة الدكتور حبش كانت من التجارب كثيرة الغنى والتميّز في القرن العشرين بحيث أن من حق أجيال القرن الواحد والعشرين أن تقف على محاورها وفواجعها، فإن ما نتمناه للدكتور جورج حبش الذي ندعو له بموفور الصحة أن يسجل هذه التجربة كتابة أو إملاء، وفي حياته أطال الله عمره، وبذلك يزيل من

أفق العمل الثوري علامات استفهام وتعجّب كثيرة. وهو بهذا العمل يفيد القضية بمثل ما يفيدها مركز الدراسات الذي سينشئه ويشرف عليه على نحو المركز الذي أنشأه في دمشق ايضاً رفيقه اليمني الجنوبي الأسبق علي ناصر محمد.

عسى ولعل «حكيم الثورة» الدكتور جورج حبش يفعل ذلك ويسجل تجربته في شتى مراحلها... وبالذات من «ضرورة الثورة» إلى «حكمة الاستقالة».

والله الموفق

بيروت صيف 2008

فؤاد مطر

قصة هذا الكتاب*

ذات يوم شتاء 1975 وكانت الغيوم الداكنة بدأت تملأ سماء العلاقات اللبنانية-الفلسطينية اتصلتُ بالزميل بسام أبو شريف رئيس تحرير مجلة **الهدف** التي تنطق بإسم «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» أطلب منه أن نلتقي.

ولقد اعتدنا أن نتصل دائماً بالزميل بسام لنستفسر عن نبأ أو نتحقق من حادثة أو نسمع الرأي في تحليل يتناول من قريب أو من بعيد «الجبهة الشعبية» .

وعندما التقينا في مكتبه الكائن في الطبقة الأولى من إحدى بنايات «حي المزرعة» في بيروت إفترض للوهلة الأولى أن الغرض من اللقاء هو الاستفسار عن أمر أو مناقشة وجهة نظر ما. لكنني عندما طرحتُ عليه الفكرة التي جئتُ من أجلها ارتسمت على محياه المشاعر الناشئة عن الاستفهام والتعجب ثم قال بعد انتهاء جلسة استغرقت حوالى ساعة: هل أنت مسافر هذه الأيام؟

وأجبته بأن طبيعة عملي في صحيفة **النهار** تتطلب أن أكون دائماً على سفر ولكنني على استعداد لتجميد السفر لمدة ثلاثة أشهر خصوصاً أنني منذ سنوات طويلة لم أحصل على إجازة وفي خلال الأشهر الثلاثة يمكنني إنجاز الفكرة التي طرحتُها.

واتفقنا على أن يصلني الرد في غضون اسبوعين وودعتُ الزميل بسام. وبعد يومين سافرتُ إلى القاهرة في مهمة صحفية كعادتي في السفر مرة أو مرتين أو

---

* هذا التوضيح لظروف اللقاءات وإعداد المادة في صيغة الحوار المطول، كتَبْتُه في لندن عام 1983 كتقديم للطبعة الأولى من الكتاب عند صدوره بكمية نسخ محدودة.

ثلاث مرات في الشهر. وبعد وصولي إلى القاهرة ببضع ساعات علمتُ من اتصال هاتفي أجريته مع عائلتي من القاهرة أن الزميل بسام اتصل لإبلاغي الموافقة على الفكرة وأنه يرى أن يبدأ التنفيذ بعد اسبوع. وعدتُ إلى بيروت لأبدأ.

كانت الفكرة التي طرحتُها على الزميل بسام تتلخص في الآتي:

هنالك أشخاص تاريخيون قد يكون من الصعب عليهم كتابة مذكراتهم وهم في خضم العمل النضالي. كذلك إنه من الصعب على هؤلاء أيضاً أن يتقاعدوا في سن معيَّنة ويتفرغوا لكتابة المذكرات مثل غيرهم من زعماء السياسة ورجال الفكر والفن والمسرح وأصحاب التجارب عموماً.

وفي ضوء ذلك ما الذي يمنع من أن يبادر كاتب وينوب عن هؤلاء في كتابة ذكريات تجمع بين السيرة الذاتية والمذكرات معاً وبالتحديد ما هو متاح من هذه المذكرات.

والدكتور جورج حبش هو واحد من هؤلاء. وبما أن أحداً منكم ككُتَّاب وصحافيين ملتزمين ومقاتلين لن تقدموا على مثل هذا الأمر، واذا أقدمتم فإنكم ستكتبون بالحد الأقصى من التحفظ باللغة الحزبية والملتزمة، فما رأيك لو تقترح على الدكتور حبش أن أقوم بالمهمة فأُجري جلسات معه أسأله ويجيب وبعد ذلك نقوم بتفريغ هذه الجلسات ونُعدِّها للنشر في كتاب.

وسألني الزميل بسام أن أضع الأسئلة التي سأطرحها على الدكتور حبش في حال موافقته على الفكرة لأننا بذلك نساعد على توضيح برنامج الجلسات وقلت له: تطلب مني أسئلة؟ الحقيقة أنني لا أدري نوع الأسئلة التي يمكن أن أضعها. انها عن كل مراحل حياة الدكتور حبش. تصور أنني صحافي منذ سبع عشرة سنة. ومنذ سنوات ونحن نكتب عن «الجبهة الشعبية» وعن الدكتور حبش. نكتب عن العمليات الفدائية التي تحدث وعن الانقسامات التي تكاثرت داخل «الجبهة الشعبية» وداخل «حركة القوميين العرب». نكتب عن ليلى خالد التي خطفت الطائرة نتيجة ايمان بمبادئ وضعها الدكتور حبش. ونكتب عن الأزمات التي حدثت في العالم العربي وكان الدكتور حبش في شكل

أو آخر طرفاً فيها... اننا نكتب عن كل ذلك ونحرر الأخبار المتعلقة بنشاطات «الجبهة الشعبية» وأمينها العام ولكننا لا نعرف تماماً قصة جورج حبش ولا نعرف دوافع الانقسامات. وقبل ذلك لا نعرف كيف إجتمع الفلسطيني مع الأردني مع الكويتي مع السوري في الجامعة الأميركية في بيروت. وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

واذا كنا نحن الذين نعمل في حقل الصحافة والكتابة لا نعرف تماماً فما بالك بالقراء العاديين الذين ينتظرون منا أن نكتب لكي يقرأ الواحد منهم ما لا يعرفه.

وأضفتُ مخاطباً الزميل بسام أبو شريف: إنني لن أترك سؤالاً يمكن أن يخطر في البال إلاَّ وأطرحه على الدكتور جورج حبش. وله أن يجيب أو لا يجيب. ويهمني في الوقت نفسه التأكيد على أن الهدف من الأسئلة لن يكون الإحراج ولا التعجيز وإنما استزادة المعرفة.

وبعدما نقل الزميل بسام إلى الدكتور جورج حبش فكرتي، وافترضُ أنه كزميل وككاتب زكَّاها، علماً بأن الدكتور حبش لا يساير في أمر غير مقتنع به، إتصل لإبلاغي الموافقة. وعندما إتصل كنت مسافراً.

وبعدما عدتُ وتبلغتُ موافقة الدكتور حبش على الفكرة التي طرحتُها بدأتُ أستعد للتنفيذ معتزاً بتقييم لي سمعه الزميل بسام من الدكتور جورج حبش ونقله لي مع الموافقة على الفكرة.

كانت «عدة» العمل عبارة عن آلة تسجيل وبضع شرائط وبطاريات وضعتُها كلها في حقيبة. وعلى رغم أنني من سكان بيروت منذ خمس وعشرين سنة (هذا حتى ذلك العام 1975) ألاَّ أنني لم أتمكن من تحديد المكان الذي نقلني اليه في منتصف احدى ليالي الشتاء الحزينة أحد أعضاء «الجبهة الشعبية» الذي تم إيفاده إلى مكتب «الجبهة الشعبية» حيث كنت أنتظر لكي يرافقني إلى المكان الذي سأجري فيه المقابلة الأولى مع الدكتور حبش. لقد سلك الأخ الذي رافقني طرقات وجدتُ مع الدوران نفسي لا أعرف أين هي بالتحديد. وخلال نصف ساعة كنت في شقة من إحدى بنايات بيروت أطرح على الدكتور حبش السؤال تلو السؤال وكنا نقاوم موجة البرد القارس بكاسات الشاي التي يأتينا بها أحد عناصر حماية الدكتور حبش.

تلك الليلة عظيمة. فللمرة الأولى أسمع الدكتور جورج حبش - وكان في تلك الأيام شاغل الدنيا وصحافة العالمٍ بسبب جو الذعر الذي تركّته العمليات الفدائية التي ارتبطت بإسمه وبإسم المخطط الدكتور وديع حداد زميله في الدراسة والعمل الثوري - يروي قصة حياته.

ولقد أسرتْني رقة هذا القائد المتميز وتواضعه والدقة المتناهية في التعبير. وفي اليوم التالي اتصلتُ بالزميل بسام أحاول منه معرفة المكان الذي جرت فيه مقابلتي مع الدكتور حبش. وقال لي إنها جرت في الشقة التي يسكنها مع عائلته وهي تبعد ثلاث دقائق بالسيارة من مكاتب مجلة **الهدف**. وقلت له لقد ظننت أنها جرت خارج بيروت لأن مرافقي سلك طرقات كثيرة واستغرقت الرحلة نصف ساعة.

وأجابني: تلك هي «بيروقراطية الثوريين»، وتلك هي الطقوس الأمنية المتبعة.

وتكررت بعد ذلك اللقاءات إنما بشكل غير مبرمج، ومن دون تحديد مواعيد. الذي كان يحدث هو أنه لمجرد أن يتوافر وقت لدى الدكتور حبش يتصلون بي فأتوجه للقائه ومعي الحقيبة التي في داخلها آلة التسجيل والأشرطة والبطاريات. وكثيراً ما كانت اللقاءات تلغى قبل دقائق من الانعقاد لأن الدكتور حبش سافر فجأة إلى احدى الدول العربية أو إلى احدى دول أوروبا الشرقية.

وفي ضوء ذلك فإن تسجيل اللقاءات إستغرق بضع ساعات خلال بضعة أشهر.

وفي كل جلسة كان الدكتور حبش يزداد تألقاً ويمعن في التواضع وفي التعبير بالكثير من الدقة إلى درجة أنه تمنى أكثر من مرة حذف بعض العبارات لأنه شعر أن فيها ما يمكن أن يخدش مشاعر رفاقه الذين انقسموا أو أحدثوا تجمعات ضده.

وكانت الأماكن التي تمت فيها اللقاءات التالية مختلفة. ولم يحدث أن التقينا في مكان واحد مرتين. اللقاء الأول في بيت الدكتور حبش واللقاءات الأخرى في بعض مكاتب «الجبهة الشعبية» في حي «المزرعة» وحي «الفاكهاني». وكل مكتب

له نكهته ويتميز عن الآخر.

... وأعتقد أن أحد اللقاءات تم داخل مخيم. وكلها تمت ليلاً. وعندما وصلْنا في التسجيل إلى مراحل متقدمة كان الوضع في بيروت بدأ يتوتر. ثم اندلعت الشرارة التي أحرقت الوطن والقضية والمخيمات والمناضلين.

ولم يعد من الممكن أن نواصل التسجيل.. هذا مع الأخذ في الاعتبار أنه اذا كتب للقاءات أن تتجدد فإن الأسئلة فيها ستدور حول أكثر اللحظات تفجعاً في حياة العمل الفلسطيني.

ومنذ ذلك الحين أي منذ العام 1976 وأنا قلق على الأوراق التي تحمل نتيجة الأحاديث الطويلة مع الدكتور حبش. وسبب قلقي ليس فقدان الأوراق حيث أن هنالك نسخة عنها محفوظة في خزانة مصرف في أوروبا وأن الأشرطة مقفل عليها داخل خزانة مصرف في بيروت كان من بين المصارف القليلة التي سلمت من السرقة والنهب. أن سبب قلقي هو الخوف من أن أنشر قصة الدكتور جورج حبش وذكرياته كما سجلتُها معه، في زمن لا يتمكن فيها الدكتور جورج من قراءتها، خصوصاً أنني عندما فكرتُ بالتسجيل والكتابة كان همي الأساسي أن يكون صاحب الذكريات أول الذين يقرأونها.

ويبقى سؤال: لماذا النشر الآن وما القصد من تعبير «حكيم الثورة»؟

والجواب عن ذلك هو: قراءة قصة الدكتور جورج حبش ضرورية الآن بمثل ضرورتها قبل بضعة أعوام. وهو إلى ذلك يمثل في الزمن الفلسطيني المفجع الراهن ما يمكن اعتباره الموقف الذي يمكن أن يحسم أشياء كثيرة. فهو اذا تخلى عن تأييد القيادة الشرعية التي يمثلها ياسر عرفات فإن هذه القيادة لا تعود قادرة على مقاومة الأمر الواقع الذي يحاولون فرضه عليها. وهو اذا تمسَّك بتأييد هذه القيادة فإن مفاجآت كثيرة قد تشهدها الساحة الفلسطينية.

وفي الماضي كان الاسم الحركي للدكتور جورج حبش هو «الحكيم» وذلك على أساس أنه طبيب. أما الآن وفي ضوء ما يحدث للثورة الفلسطينية فإن كلمة الحكيم مأخوذة من حكمة.

ما الذي سيفعله «حكيم الثورة الفلسطينية»؟

في انتظار الاجابة نقرأ معاً قصته.

وتكراراً إن ما أسجله في الصفحات التالية في شكل سؤال وجواب هو سيرة وذكريات.

ولعل وعسى يكون التوفيق حالفني.

الفصل الأول

ذات يوم في اللّد

*** إن أكثرية العرب وغير العرب تقرأ أو تسمع عن التجربة التاريخية التي مازلتَ مستمراً في ممارستها. ولطالما تساءل البعض من هو الدكتور جورج حبش. من هو بالمعنى الشمولي وليس بالتحديدات التقليدية.**

ماذا لو رويتَ لي ولتلك الأكثرية سيرتك الذاتية خصوصاً أنه من خلال ذلك ستتضح الخلفية التي تقودنا إلى السبب أو الأسباب التي جعلتك تخوض التجربة بكل ما فيها من مواقف؟

- أنا إنسان فلسطيني عربي من مواليد 1925. وأنا أستعيد الآن تلك الفترة، أتذكَّر أنني في عام الإضراب الشهير الذي شهدته فلسطين والذي هو عام الثورة العربية الكبرى كنت في الحادية عشرة من العمر.

كان العام 1936، عندما حدث الإضراب الشهير وبدأت ترتسم في ذهني حالة الجماهير الفلسطينية في تلك المرحلة. ولعلٍ لهذا العام بما شهده، بالإضافة إلى المواقف التي حدثت في العام الذي سبقه وأتذكّر بعضها الآن، الأثر في مسلكيتي وفي الخط الذي بدأت الخطوة الأولى فيه قبل حوالى ربع قرن، ومازالت هنالك مئات الخطوات.

أتذكَّر الآن مشاهد حدثت في العام الذي سبق العام 1936.. عام الثورة المسلحة والإضراب الشهير. يومها كنت في اللد، وفي الصف الثالث أو الرابع ابتدائي. خلال حصة الحساب حدث الأمر الآتي: كنت مع زملائي جالسين على

مقاعدنا لحل مسألة حسابية. فجأة وقف مدرس الحساب، واسمه على ما أعتقد وصفي الطاهر، وضرب على الطاولة بهدوء، ووضع ساعته أمامه وقال لنا أن نقف دقيقة صمت.

فوجئنا بطلب المدرس. والآن يمر في خاطري مشهد لا أنساه. انسابت دمعة من عينيْ المدرس، وسقطت على أحد دفاتر العلامات التي كانت موضوعة أمامه. وبينما الدمعة تسقط قال لنا: في هذه اللحظة التي نقف فيها، كان لنا اخوان عُلِّقوا على المشنقة في القدس.

وذكر لنا المدرس أسماء الذين شُنقوا. ثم استأنف تدريسه لنا.

وهذا المشهد واحد من مشاهد كثيرة تمر في الخاطر الآن ونحن نستعيد تلك الفترة. وهنا لا بد من الاشارة إلى الدور الذي لعَبْته المدارس في مسألة إحياء الشعور الوطني.

وبالنسبة إليّ، أعترف أن المدرسة هي التي جعلتني أعيش قضية الوطن والجماهير. ذلك أنني من عائلة مسيحية. والأقليات الدينية لم تكن في صلب «الحركة» الوطنية بالمفهوم العلمي. وأتذكَّر الآن كيف أن مدير مدرستنا في اللد واسمه توفيق أبو السعود كان يغتنم الفرصة باستمرار ليحدثنا عن حقنا في وطننا، وحقنا في الحرية والاستقلال.

الآن يدرك الواحد منا ماذا كان يعنيه مدير مدرستنا عندما يحدثنا ونحن فتية عن الوطن والحرية والاستقلال. يومها لم نكن نستوعب مثل هذا الكلام. بعد ذلك استوعبْنا، وفهمْنا، وشعرْنا أن اتجاهنا نحو العمل الوطني لم يأت من فراغ. حدثت عملية زرْع للشعور الوطني عندما كنا في المدرسة.

لقد كان دور المدرسة كبيراً جداً في مسألة الشعور الوطني. وفي تلك الفترة تولى عملية زرع هذا الشعور في ضمائرنا عدد من المدرّسين. وقبل بضعة أعوام التقيت في بغداد بأحد هؤلاء المدرسين وهو فخري انشاصي. وتذكَّرْنا معاً الدور الذي كان له ولبعض زملائه في إنماء الشعور الوطني في نفوس أبناء جيلنا. تذكَّرْنا كلمات الأناشيد التي كنا نرددها وكلمات الصباح التي كنا نتعلمها في المدرسة من نوع «يا ظلام السجن خيّم» و«بلاد العرب أوطاني».

وقبل أن ألتحق بالمدرسة الحكومية أمضيت حوالى ثلاث سنوات في المدرسة الانجيلية. الآن أتذكَّر أن سنين المدرسة الانجيلية لم تترك أثراً في نفسي كالأثر الذي تركته المدرسة الحكومية. ربما لطبيعة المدرسة والمدرسين، وربما لأنني عندما انتقلتُ إلى المدرسة الحكومية كنت في سن تسمح باستيعاب الكلام حول الوطن والوطنية، وربما أن المدرسة الانجيلية لم تكن تُعنى بمسألة التوجيه الوطني، مكتفية بالتركيز على المسائل الدراسية.

بالإضافة إلى الأثر الذي تركته المدرسة الحكومية في نفسي، هنالك أيضاً الشارع بما كان يشهده وأنا في تلك السن. وعندما استعيد شريط تلك الأيام تستوقفني التظاهرات التي كانت تحدث ولا أشارك فيها وإنما أتفرج عليها لأنني فتى صغير بينما المتظاهرون من الشباب والكبار في السن. هذه التظاهرات تستوقفني بالفعل وأشعر الآن أن الأثر الذي ولَّدته في نفسي كان كبيراً وعظيماً. وحتى الآن ترن في ذاكرتي الهتافات التي كانت تُطلق في تلك التظاهرات، التي كنت أتفرج عليها مع رفاقي الصغار أو نلحق بها ونردد ما يرددون. من هذه الهتافات التي ترن في ذاكرتي: «يسقط وعد بلفور»، و«يسقط الاستعمار البريطاني». كذلك أشعر الآن وكأنني أردد الأناشيد التي كنا نتعلمها في المدرسة.

والآن أتذكَّر أيضاً مشاهد تبدو وكأنها ماثلة أمامي وهي مشاهد أفترض أنه كان لها الأثر الكبير في الطريق الذي مشيت عليه بعد ذلك. أتذكَّرمثلاً كيف أنه فجر أحد الأيام أفقت من النوم، وأنا طفل، على طَرْق متواصل وعنيف على باب بيتنا، وكيف أن والدتي سألت من الطارق، فأجابها الجنود الانكليز أن عليها أن تفتح بسرعة وإلاَّ... واضطرت والدتي أن تفتح الباب، ثم وجدتُ نفسي خلال دقائق مع شقيقاتي وأشقائي نتبع والدتي تاركين البيت في اتجاه البيادر، وهي المكان الذي يُجمع فيه أهل اللد في موسم حصاد سنابل القمح. أتذكَّر أن عشرات الأطفال والنساء والرجال والشيوخ كانوا قد سبقونا، وأن العشرات لحقوا بنا بحيث أنه خلال وقت قصير كان أهل اللد خارج بيوتهم متجمعين في البيادر، بينما الجنود الانكليز استباحوا حرمة البيوت.

جلسنا في البيادر وهي أرض واسعة حوالى ثلاث ساعات نتحمل الحر

والعطش. وأتذكَّر أن الكبار كانوا يتساءلون، والأطفال يسألون الكبار: ماذا يريد هؤلاء منا؟

وفي آخر النهار بدأنا نسمع أن الجنود الانكليز أخلوا بيوت اللد من سكانها بحثاً عن السلاح، وأنهم قبل أن يتركوا البلدة أخذوا معهم عشرة من شبانها أحدهم ابن خال والدتي.

هذا الحادث كان أيضاً له الأثر الكبير في نفسي. والآن أتذكَّر بكاء النساء عندما سيقَ الرجال العشرة. وأتذكَّر كلاماً قيل في حينه وهو أن الانكليز بعدما بلغهم أن الثوار يلغمون طريق السكة الحديدية ارتأوا أن يضعوا في عربة تتقدم القطار مجموعات من الشباب العرب بحيث إذا كان الخط ملغوماً فإنه سينفجر بالعرب، واذا كان غير ملغوم يمتنع الثوار عن مثل هذه العمليات حرصاً على ألاَّ يصاب اخوان أو أقارب لهم، مادام اللغم سينفجر بالعرب أولاً.

عندما طرق الجنود الانكليز باب بيتنا وأبواب بيوت الاهل والأقارب والجيران في اللد لم يكن والدي في المنزل. وغيابه أحدث حالة هلع في نفوسنا. وعندما عاد والدي إلى المنزل تبدلت تقاطيع وجهه بعدما سمع ما سمع، ورأى كيف أن الجنود الانكليز بعدما عبثوا بالمنزل بحثاً عن السلاح، رموا كل ما في المنزل من مؤونة أرضاً. والآن أتذكَّر منظر السكر مخلوطاً مع الأرز، أو منظر العدس مخلوطاً مع الطحين وقطع الصابون.

ولم يكن والدي من النوع الذي يحرص على اقتناء قطعة سلاح في منزله. كان انساناً مسالماً يعيش من عمل متواضع يقوم به. كان يشتري حوائج ويقصد الفلاحين ليبيعهم هذه الحوائج، ثم يعود ليشتري بالمردود بضاعة أخرى يبيعها، وهكذا. وأتذكَّر الآن منظر والدي في دكانه الصغير جداً في سوق اللد الذي كان يعاونه فيه عمي. أتذكَّر الآن كيف كان يُحمّل دابته بالصابون والقماش والحلوى ويتوجه نحو الفلاحين، ويغيب أحياناً أكثر من يوم ثم يعود بثمن ما باعه. وأحياناً كان لا يعود بالمال، وإنما بالقمح والبيض أو السمن، لأن الفلاحين عادة لا مال لديهم، وإنما منتوجات من الأرض التي يفلحونها ويزرعونها. وما يعود به أبي يبيعه لتجار آخرين.

بعد ذلك اتسعت تجارة أبي، ولم يعد الدكان صغيراً جداً. وكانت العائلة المؤلفة من أبي وأمي وأخي وأختين أكبر مناً مني، وأختين أصغر سناً، من العائلات التي لم يكن أحد من أفرادها مندمجاً في «الحركة» الوطنية. ولذلك لم نتعرض إلى السجن أو الاعدام. وهكذا كانت آلامنا أقل نسبياً من آلام الآخرين. أقل مثلاً من الآلام التي واجهها عدد من سكان حارتنا. وأتذكَّر الآن حادثة كان لها أيضاً الأثر الكبير في نفسي. ذات يوم، وبينما أنا عائد إلى منزلنا، سمعت صراخاً وعويلاً ونحيباً في منزل أحد جيراننا. وسألتُ أمي عن سبب ذلك، فقالت لي إن الإنكليز أعدموا ابنهم.

الانكليز أعدموا ابنهم؟ الآن يهتز وجداني وأنا أتذكر. في ذلك الحين لا أعرف كيف كانت مشاعري. الآن أعرف أن مثل هذه الأمور تجمعت وجعلَتْني أختار الطريق الذي سلكْته.

بقيتُ في اللد حتى صف «السرتفيكا» (أي الشهادة الابتدائية). ولما كانت والدتي حريصة جداً، شأنها في ذلك شأن معظم الفلسطينيين، على أن أكمل دراستي، فإنني انتقلتُ إلى يافا. وشجع والدتي على ذلك أنني كنت متفوقاً في مدرسة اللد. وعندما غادرت إلى يافا كانت أمي في غاية السعادة لأنني سأكمل تعليمي. وفي فلسطين يتباهون بمسألة تعليم أولادهم. والآن أجد أن هذه الناحية فضيلة من فضائل الفلسطينيين.

إن يافا أقرب مدينة إلى اللد، وفيها مدارس حكومية ثانوية. لكنني لم أعثر على مكان لي في احدى هذه المدارس. وحيال ذلك التحقتُ بمدرسة ارثوذكسية اسمها «الثانوية الارثوذكسية» يديرها اللبناني كمال ديب، وبين أساتذتها أيضاً عدد من اللبنانيين منهم وديع ديب ومنح خوري.

وانتقلت عائلتي بعد فترة إلى يافا، ليس بسبب انتقالي وإنما لأن والدي وسَّع تجارته وفتح متجراً في سوق الدير الذي سمي بهذا الاسم لأن مباني السوق كانت تابعة لوقف أحد الأديرة.

ولأن صفوف الثانوية الارثوذكسية كانت تنتهي بالصف الثاني، فإنني بعدما انجزتُ دراستي فيها انتقلتُ إلى كلية «ترامنتا» في القدس.

وحتى هذه الفترة كنت لا أزال ذلك الطالب المجد في دراسته، والذي تُرضي

العلامات التي تعطى له والدته. وبمقدار ما كانت والدتي تشجعني، فإنني كنت حريصاً على أن أرضيه وذلك بأن تكون علاماتي باستمرار جيدة. وبرغم أن عمي كان من سكان القدس، إلاَّ أنني أمضيت سنوات الدرس في القدس في القسم الداخلي. وبالإضافة إلى حرصي على أن تكون العلامات جيدة فإنني كنت في مرحلة الدراسة في القسم الداخلي أمارس هواياتي، ومنها قراءة الأدب والشعر والعزف على آلة «البستون» النحاسية التي هي أقرب إلى «الكلارنيت»، لكنها نحاسية. وفي تلك الفترة لا أتذكَّر أنني قرأت كتباً تتعلق بالقضية الوطنية. كل قراءاتي كانت أدبية وفكرية بالإضافة إلى الشعر.

وفي تلك الفترة ضُربت الثورة. وحدثت حالة جزر، أي أن الجو كان على غير ما شهدتُه في طفولتي وأنا في اللد. وأتذكَّر الآن أن حالة الجزر انعكست على الجماهير الفلسطينية، وبرغم ذلك فإن المشاهد والأحداث التي علقت بذاكرتي وأنا في اللد استمرت على ما يبدو تتفاعل.

بعدما نلت الشهادة الثانوية من كلية «ترامنتا» في القدس وهي شهادة تعادل التوجيهية، أبلغني والدي رغبته في أن أعمل معه في التجارة. وبرغم أنني كنت أتردد إلى متجره وأساعده إلاَّ أن مسألة العمل التجاري كانت لا تستهويني.

وفي نهاية العطلة الصيفية، حاولت الانتساب إلى كلية الحقوق في القدس. وهذه كانت الكلية الوحيدة المتوافرة لأن لا جامعات آنذاك في القدس. وعندما ردوا على طلبي بقولهم إنه جاء متأخراً ولا مكان لي وجد والدي الفرصة مناسبة ليُلح عليَّ كي أعمل معه في التجارة، في الوقت نفسه عرض عليَّ مدير المدرسة التي تعلمتُ فيها في يافا أن أتولى التدريس في المدرسة فتلقفتُ العرض. وشعرتُ أن التدريس أفضل بكثير من العمل التجاري. وعملتُ لمدة سنتين مدرّساً، ثم انتقلتُ إلى بيروت للالتحاق بالجامعة الاميركية على رغم أن والدي لم يكن متحمساً. لكن حماسة والدتي كانت كافية ومشجعة.

انني، وأنا أتحدث معك الآن، ترتسم في ذهني صورة اللد وصورة يافا وصورة القدس. أتذكَّر بيتنا في اللد الذي كان عبارة عن غرفة واحدة مبنية ننام فيها. وأمام الغرفة مصطبة، ثم قطعة أرض صغيرة. أتذكَّر شجرة التوت العالية أمام بيتنا

والتي كنا ونحن صغار نتسلق لنأكل من ثمرها. أتذكَّر أيضاً شجرة اللوز، وغرسة الورد والفلة الصغيرة أمام المصطبة. أتذكَّر بيوت الخشب وحائط الصفيح الذي كان يفصل بيننا وبين جيراننا. أتذكَّر جيراننا آل حنحن وآل سيف الدين. أتذكَّر الشارع الرئيسي في مدينة اللد والشوارع المتفرعة. أتذكَّر الطريق التي كنا نمشي عليها لنصل إلى المدرسة الابتدائية. أتذكَّر المدرسة نفسها بمدخلها وسُلّمها وبوابّها وبابَها. وأتذكَّر مدير المدرسة توفيق أبو السعود كيف كان يمشي وكيف كان يخاطبنا. أتذكَّر سوق المدينة والشارع الذي يؤدي إلى السوق. معالم الدكاكين واضحة الآن في ذهني كما لو أنني هناك الآن انني أرى اللد في هذه اللحظة بالوضوح الذي أرى فيه «حي صبرا» حيث نحن الآن أو «مخيم شاتيلا».

واللد ليست قرية، كانت مركز لواء، ولذا فهي أقرب ما تكون مدينة صغيرة. للمناسبة أتذكَّر نكتة كانت شائعة في ذلك الوقت وخلاصتها «إن اللد هي الدولة الثامنة» على أساس أن سبع دول خاضت الحرب وأن اللد كانت تعتبر نفسها، أو على الأصح يعتبرها سكانها، دولة قائمة بذاتها.

إن اللد في الواقع هي احدى المدن الصغيرة في فلسطين. وهذه المدن هي: الرملة، صفد، رام الله، جنين. أما المدن الكبرى فهي القدس ويافا وحيفا. وميزة أهل المدن الصغيرة في فلسطين أنهم أكثر التصاقاً بالأرض والوطن ربما لأنها مدن زراعية. والذي يعيش من الأرض يكون أكثر تمسكاً بها من غيره.

وأتذكَّر الآن كيف كنا ننظر إلى بعض عائلات اللد من الأغنياء. لم نكن في ذلك الوقت نعرف الكلمات التي أصبحت معروفة بعد ذلك، «اقطاعي» و«بورجوازية». ولذا كنا نطلق على هؤلاء وصف «الكبار» وكنا نحن «الصغار» نشعر بعقدة حيال هؤلاء. و«الكبار» هؤلاء كانوا إما أصحاب متاجر أو مُلاَّك أرض.

الأكثرية في اللد من المسلمين. عموماً إن المسيحيين في فلسطين أقلية. وفي أي حال أن الطائفية في فلسطين ليست حادة. وكان الجميع يلتقون في وجه الخصم المشترك. كان هناك بالفعل تعايُش. وإلى حد ما كانت العادات والتقاليد واحدة.

أتذكَّر الآن وبوضوح تام السنتين اللتين أمضيتهما في يافا كطالب، ثم السنتين الأُخريين اللتين علَّمت فيهما في يافا. أتذكَّر يافا البحر، ويافا البرتقال. انني في المرة

الأولى التي دخلتُ يافا استنشقتُ رائحة البرتقال التي لا تجاريها رائحة، وكأنني في هذه اللحظة استنشق هذه الرائحة. يافا تعيش واضحة في ذاكرتي. يافا الشارع الرئيسي. يافا السوق. يافا الأحياء الرئيسية. يافا العجمي... ويافا الحدود التي تفصلها عن تل أبيب. والأهم من كل ذلك هو... يافا البرتقال.

الفصل الثاني

بيروت... وأيام الدراسة في الجامعة الأميركية

*** هل أن جواً سياسياً معيَّناً في بيروت هو الذي جعلك تفكر في العمل السياسي؟ ثم كيف مارستَ هذا العمل وكيف تطور؟ وكيف استطعتَ الجمع بين الدرس وبين التفكير في العمل السياسي، ثم ممارسة هذا العمل؟**
أن وجودك في بيروت كان المنطلَق. ولعل ولادة جورج حبش السياسي تمت في ظروف معينة. ما هي تلك الظروف، وبالتحديد ما الذي فعلْته في بيروت تسلسلاً منذ أن وصلتُ اليها حتى نضوج فكرة العمل السياسي في ذهنك؟

- عندما جئتُ إلى بيروت كانت ظروف الحرب العالمية الثانية طاغية. انجزتُ «السوفومور» و«الجونور» في سنتين. بدأتُ في العام 1946-1947 السنة الأولى في كلية الطب. وفي هذه السنوات الثلاث كنتُ مهتماً جداً بالدراسة. سكنتُ داخل الجامعة الأميركية في غرف مشتركة. كل غرفة تضم من طالبين إلى أربعة. وأتذكَّر أنني في دراستي كنتُ أتصور فرح والدتي لأن أمنيتها في أن أدرس الطب تحققت.

كانت نشاطاتي وهواياتي في تلك الفترة عادية وليست حادة على الصعيد السياسي ربما لأن القضية الفلسطينية كانت مستوعَبة من خلال الظرف الدولي. لكن قرار التقسيم الذي إتُّخذ في نهاية 1947 أحدث حالة حادة في ذهني وفي اذهان بعض الطلاب آنذاك. وأتذكَّر أن رد فعلي الأول على قرار التقسيم هو

المزيد من الاستهجان لأنه قرار غير عادل. وفي الوقت نفسه كان تصوري أنه من الصعب تنفيذ القرار. وسبب هذا التصور ما زرعوه في رؤوسنا ونحن في المدرسة الابتدائية. وما زرعوه كان تصغير حجم العدو، وفي الوقت نفسه قدرة العرب على انهاء الخطر الصهيوني. وأتذكَّر أنني كنتُ أردد بيني وبين نفسي أحياناً، وبيني وبين بعض الزملاء أحياناً أخرى أنه من الصعب أن يمر قرار التقسيم وأن هناك سبع دول عربية لا بد ستكون له بالمرصاد.

المهم أن قرار التقسيم أحدث ردة فعل حادة في المنطقة. ووجدتُ نفسي أنني مع بداية السنة الثانية في كلية الطب أعيش في جو سياسي سببه قرار التقسيم. ليس هنالك أي نشاط وإنما مجرد أجواء سياسية. كانت مشاعري تتركز حول نقطة واحدة هي أن القرار يجب ألاَّ يمر. ووجدتُ نفسي أشارك في تظاهرة جرت وتستنكر قرار التقسيم.

قبل أن أشارك في التظاهرة كانت قراءاتي في معظمها فكرية وأدبية وليست سياسية. وقد قرأتُ كثيراً لطه حسين وتوفيق الحكيم لأنني كنتُ مشدوداً إلى الأدب المصري. وفوق ذلك تتبعتُ النشاطات الأدبية في مصر من خلال مجلتين هما «الرسالة» و«الثقافة».

وكان اشتراكي في التظاهرة عفوياً. كانت التظاهرة منبراً شعرتُ بالحاجة اليه للتعبير عن انفعالآتي التي سببها قرار التقسيم.

وفي تلك الفترة لم يكن في الجامعة الأميركية في بيروت تنظيم معيَّن هو الذي يُعد وينظِّم ويحرِّك. لكن كانت هنالك وجوه هي، اذا جاز التعبير، تبدو لنا كعناوين. منها على سبيل المثال محمد نجم (الذي أصبح بعد ذلك استاذاً للأدب العربي في الجامعة)، ومعتوق الأسمر الذي أصبح تاجراً أو مدير بنك على ما أعتقد. هذه الوجوه كانت تقرر التظاهر أو عدم التظاهر.

وبعد ذلك تصاعد النشاط السياسي في الجامعة. وأصبحنا في الفترة التي سبقت 15 أيار/ مايو 1948، (عندما صدر اعلان تأسيس اسرائيل)، مشدودين إلى المعارك التي كانت تخوضها داخل فلسطين مجموعات تابعة للهيئة العربية العليا. ونتيجة لذلك رفعْنا في الجامعة مطلب التجنيد، خصوصاً أنه في تلك الفترة

طُرحتُ فكرة «جيش الإنقاذ» لمواجهة عصابات «الهاغانا» التي كانت تهاجم أهلنا في فلسطين وتجبرهم على النزوح من ديارهم. وعندما وصلت الدفعة الأولى من المهاجرين وضعوا أفرادها في «الكرنتينا» لبعض الوقت. وأتذكَّر بأن ذلك حدث قبل 15 أيار/ مايو 1948، وانني كنتُ بين مجموعة من الطلاب الفلسطينيين ذهبْنا إلى الكرنتينا لنعرف مِنَ الآتين ما يجري في بلادنا. وكان شعور هؤلاء أنهم سيعودون لأن الدول العربية السبع لن تترك فلسطين تضيع وستحقق الجيوش العربية النصر في وقت قريب.

هزَّني منظر الآتين من فلسطين، فوجدتُ نفسي بعد ذلك اتصل بالوجوه التي قلت إنها بمثابة عناوين لتَحرُّكنا السياسي مطالباً بالاسراع في مسألة التجنيد. وأتذكَّر أنني قلتُ لتلك الوجوه أنه مادام يجري احتلال لبلادنا فيجب أن نترك الجامعة ونذهب للمشاركة في القتال. وكنتُ تأكدتُ وأنا في الكرنتينا أن أهلي ليسوا من الفوج الأول الذي نزح. وأعتقد أن برقية وصلتني من الأهل بعد ذلك أكدت لي أنهم مازالوا في فلسطين.

كان الوضع لا يُحتمل. وأتذكَّر أن بعض الطلاب تركوا الجامعة والتحقوا بجيش التحرير. وفكرتُ في أن أفعل الشيء نفسه. وفي تلك الفترة أتصل بي شاب فلسطيني من نابلس وقال لي: إننا نتصرف بشكل فردي وهذا لن يفيد. إن اليهود يعملون وفق مخطط مدروس، واذا كان لا بد من مواجهة هذا المخطط فمن الضروري العمل وفق مخطط مضاد. وفي الوقت نفسه وجدتُ نفسي واحداً من حوالى أربعين طالباً نلتقي بالدكتور قسطنطين زريق، الذي تبين أنه صاحب فكرة ضرورة العمل وفق مخطط. وكان الدكتور زريق يلقي علينا محاضرات حول القومية العربية والخطر الصهيوني.

وبدأ يتنازعني نوعان من المشاعر. النوع المنطقي اذا جاز التعبير الذي يطالب بالعمل وفق مخطط، والنوع العاطفي والحماسي الذي يضغط عليَّ بقوة من أجل أن أكون في فلسطين مع الذين يقاتلون.

وأتذكَّر أن رسالة وصلَتْني من الأهل الذين انتقلوا بسبب ما تفعله العصابات الاسرائيلية من يافا إلى اللد بعدما كانوا قرروا البقاء في يافا، تتضمن مئة أو مئتي

دينار ورجاء بالبقاء في بيروت. لكنني لم أتحمل صورة البقاء في بيروت بعيداً عن فلسطين خصوصاً بعدما تكشفت الحقائق وتبيَّن أن الجيوش العربية لم تستطع تحقيق النصر، وان الأغاني التي سادت في ذلك الوقت وأشعلَتْنا حماسة من نوع «يا فلسطين جينالك» لم تُفد في شيء.

انتهى الفصل الدراسي في الجامعة، وقررتُ أن مكاني يجب أن يكون في فلسطين وليس في بيروت كما يريد الأهل. ولما كانت طريق الناقورة أُقفلت فإنني توجهتُ إلى بلدي عن طريق عمان. وتلك كانت المرة الأولى التي أرى فيها عمان. ومن عمان توجهت إلى اللد يغامرني شعور بأنني جزء من الشعب الفلسطيني وما يجري لغيري يجري لي.

صُدمتُ بالوضع منذ الاسبوع الأول من وصولي إلى اللد. لم أشعر أن هنالك قيادة عسكرية تعبئ الجماهير وتوزع عليهم المهام، ولا قيادة سياسية تخطط وتساعد في عملية التعبئة. كانت هنالك حالة من الفوضى طغت على حماسة الناس وايمانهم بالنصر. وكنت في غاية الضيق لأنني غير مدرب ومن واجبي أن أقاتل مع الذين يقاتلون.

وأذكر أن شقيقي الأكبر وبعض الاصدقاء أخرجوني من ضيقي عندما قالوا لي إنه اذا لم يكن في قدرتي أن أقاتل لأنني غير مدرب، فإنه يمكنني تأدية واجب كبير وأساسي. وعندما استفسرت منهم قالوا لي أن هنالك مناضلين يسقطون جرحى يومياً. وفي اللد مستوصف يحتاج إلى خدمات طبية. والخدمة الطبية جزء من النضال الوطني.

وعلى الفور توجهتُ إلى مستوصف مدينة اللد أشارك في اسعاف الجرحى الذين يأتون يومياً ويحملون معهم أخبار تلك المعارك التي تجري. وانتابني شعور من خلال أحاديث الجرحى أن الموقف ليس لمصلحتنا.

وأتذكَّر أن الفوضى التي استمرت لعبت دوراً في هذا الموقف. وكان الصراع بين قيادة الجيش الأردني وقيادة الثوار أبرز ملامح الفوضى التي ازدادت اتساعاً إلى أن سقطت اللد.

وإلى الآن ما زالت صورة سقوط اللد ماثلة في ذهني. وما زال ماثلاً في ذهني

منظر المستوصف يعج بالجرحى ومنظر جامع البلدة وكنيستها يعجان باللاجئين. ما زال ماثلاً في ذهني أيضاً منظر الفتاة الجريحة التي تصرخ طالبة أن تشرب، ومنظر الأم التي تبكي ابنها أو طفلها أو زوجها. لقد كان ذلك اليوم فظيعاً. وبالإضافة إلى المستوصف إمتلأ «المستشفى الإنكليزي» بالمصابين. وهذا المستشفى الذي أخضعه الثوار لإشرافهم كبير لكن عدد الأطباء فيه قليل. ولذلك كان الأطباء يُسعفون من هو على رمق الحياة على أمل انقاذه، أما الذين إصاباتهم جسيمة فكانوا مكوَّمين في ردهات المستشفى.

لقد سقطت اللد!

يوم سقوطها كنتُ حزيناً شأني في ذلك شأن كل أبناء المدينة. واليوم وأنا أتذكَّر السقوط ينتابني الحزن يواكبه التصميم على العودة عبر النضال المستمر اليها وإلى كل مدينة وقرية في فلسطين.

وأتذكَّر أنه في اليوم التالي لسقوط اللد دخلت قوات اسرائيلية المستشفى حيث كنتُ أساعد الأطباء في انقاذ الجرحى واسعافهم على أمل أن تستمر المعركة.

وهزني منظر الضابط والجنود الاسرائيليين، وانتابني شعور بأنه لو كان معي مسدس لأفرغت رصاصه في رؤوسهم. ووجدتُ نفسي أتحرق على قتال هؤلاء. وما دام ليس معي سلاح فلأقاتلهم بالكلمة الصامتة. وكنتُ أتطلع فيهم وأقول بصمت: هذه أرضنا يا كلاب، وهذه بلادنا وليست بلادكم وسنبقى نقاتلكم ولن تربحوا المعركة.

ولم تكن هذه مشاعري، أو لم يكن هذا الكلام لسان حالي فقط، وإنما كان لسان حال كل الناس على رغم الهزيمة ومرارتها.

وأتذكَّر أنه في ذلك الوقت جاءت خالة أمي إلى المستشفى وهي أمرأة مسنة، وطلبت بإلحاح أن أرافقها. وقلتُ لها إنني يجب أن أبقى في المستشفى وهناك عشرات الجرحى يحتاجون إليَّ. وأصرت قائلة إن أهلي يريدونني لأمر عاجل. وعرفتُ بعد ذلك أن شقيقتي الكبرى، وكانت في تلك الفترة مريضة، قد توفيت.

ولأن العلاقة بين الأخ واخته الكبرى دائماً متميزة فإنني ضعفتُ خصوصاً أن أختي الكبرى شاركت والدتي في تربيتنا. وتصورتُ لثوانٍ أختي وأطفالها ثم

وجدتُ نفسي أسير في الشارع الذي خلا إلاَّ من قوات اسرائيلية وبعض الجثث هنا وهناك، وكان بعضها منتفخ البطن. ولأن هذه الجثث لمواطنين من اللد ونحن نعرف بعضنا بعضاً، فإنني كنتُ أتعرف بسهولة على أصحاب الجثث. وأتذكَّر أن إحداها كانت لإنسان بسيط كنا نشتري منه الترمس ونحن أطفال.

عندما وصلنا إلى البيت تأكد لي أن اختي الكبرى توفيت بالفعل ودفنوها أمام البيت من دون ممارسة الطقوس الدينية بسبب الظروف التي كانت سائدة.

وبينما نحن نتذكر أختي ونبكيها ونترحم عليها، بدأ الطرق على الباب. مَن؟ إنهم جنود اسرائيليون. ماذا يريدون؟ لقد طلبوا منا مغادرة البيت. ماذا فعلنا؟ قلنا لهم هذا بيتنا وهذه أرضنا وبلدنا ولن نتزحزح. بماذا ردوا؟ اشهروا علينا السلاح وهددونا.

وتحت وطأة التهديد غادرنا بيتنا. هُمنا على وجوهنا في الشارع. وإكتشفتُ أن الاسرائيليين فعلوا الشيء نفسه مع الجيران ومع كل سكان البلدة.

وقادنا الجنود الاسرائيليون من مكان إلى مكان. وفي وسط الطريق، جندي يقول بلهجة التهديد: سيروا من هنا. وعلى رأس الشارع جندي آخر يقول لنا باللهجة نفسها: سيروا على هذا الطريق... وهكذا إلى أن وجدنا أنفسنا نصل إلى أطراف البلدة.

في هذا الوقت راودتني فكرة أن أعود إلى المستشفى بأي وسيلة، فقد تذكرتُ الجرحى والألم الذي يعانونه، لكن الحاح والدتي وشقيقي وأولاد شقيقتي التي دفنَّاها قبل قليل، بالبقاء معهم، حال دون تنفيذ رغبتي. لقد أصبحتُ واحداً من عشرات أُجبروا على ترك بيوتهم وساروا نحو المجهول.

وأتذكَّر الآن ما الذي فعله الجنود الاسرائيليون في المحطة الأخيرة قبل أن نصبح خارج اللد. كانت محطة تفتيش. ولم يترك الاسرائيليون قطعة ثمينة في يديْ أو عنق سيدة أو رجل أو طفل إلاَّ وانتزعوها بالقوة. وأتذكَّر أيضاً كيف أن الاسرائيليين قتلوا شاباً يدعى أمين حنحن كان زميلاً لي في المدرسة في اللد لأنه حاول منعهم من تفتيش جيوبه. لكنهم قتلوه وأخذوا ما في جيبه من مال. قتلوه أمامنا جميعاً وكأن شيئاً لم يكن.

فجأة وجدْنا أنفسنا وقد أصبحنا خارج اللد. وفي وقت قصير أصبح عدد الذين تجمَّعوا بالألوف. وأتذكَّر أننا كنا في رمضان والدنيا صيف. وسرنا وسار الألوف الذين تجمَّعوا في منطقة جبلية. وبدأ التعب يظهر على الأطفال والمسنين والسيدات. ثم بدأ الناس يشكون من العطش. الطقس حار ولا ماء والمسيرة طويلة لا تنتهي. ولذا فقد مات البعض على الطريق من التعب والعطش. وكثيرون تخلوا عن أولادهم وأطفالهم وأكملوا المسيرة على أساس أن يهيء القدَر للأطفال والأولاد طريقة للخلاص.

أتذكَّر الآن كيف أننا عندما وجدْنا على الطريق مستنقع ماء اعتبرناه نبعاً. وشرب كل من استطاع من هذا المستنقع الذي كان لون مياهه أخضر من كثرة التلوث. أن مثل هذه المياه لا يمكن الاغتسال بها في الأيام العادية، لكنها بدت لنا مياهاً عذبة وصافية وسط هذا الجو الحار.

مع حلول الليل توقفت المسيرة. وبدأ البعض يقول إننا على مقربة من بلدة تدعى «نعلين» وإفترش المئات الأرض من وطأة التعب والحر والعطش. والآن أتذكَّر أن الواحد منا لم يكن يتصرف وفق ما تمليه عليه ارادته وإنما نتيجة عوامل لم يكن يدركها في ذلك الوقت.

وأتذكَّر الآن أنه في تلك الليلة صدر عني تعبير لعله كان المؤشر إلى ما فعلته بعد ذلك. في تلك الليلة اجتمعتُ بأحد رفاق المدرسة وهو من عائلة حسونة، وبشاب آخر من عائلة الكرزوني. وقد عرضْنا الظروف ثم وجدْنا أنفسنا نقول بكثير من البراءة ومن دون وعي أو فهم لما تعنية الكلمة: لن نخسر بلادنا.

في صباح اليوم التالي بدأت تصل إلى «نعلين» من رام الله أوتوبيسات وشاحنات لنقل الناس. وانتقلتُ مع أهلي إلى رام الله وأمضينا بضعة أيام ننام في كرْم عنب وزيتون. وبدأ الآخرون يرتبون أوضاعهم على أساس الأمر الواقع. البعض استأجر منازل في رام الله، وآخرون توجهوا لإستئجار منازل في قرى قريبة منها: «بيرزيت» و«جفنه» والبعض الآخر إلى عمان ونابلس.

وتفرَّق الجمع البشري الهائل وبدأت تصدر عن الناس اتهامات للملك عبدالله والزعماء العرب. وكان هؤلاء يهاجمون الحكام العرب من موقع الكافر بهذه

الزعامات التي لم تتمكن من حمايتهم.

وبعد فترة أمضيتها مع الأهل في رام الله عادت الوالدة تضغط وتطلب مني العودة إلى بيروت لإكمال دراستي. وكنتُ أقول لها: يجب أن أصمد في وجه الاسرائيليين. يجب أن نصمد جميعاً ونتصدى لهؤلاء الذين طردونا وشردونا واستولوا على أرضنا. وكانت والدتي تهدئ من غضبي قائلة إنه اذا كانت الدول لم تفعل شيئاً ولم تصمد فما الذي يمكن أن يفعله شخص. وكانت أيضاً تُعبّر عن أمنيتها في أن تراني طبيباً.

ولقد شعرتُ مرة جديدة بضعف أمام والدتي ووجدتُ نفسي أعود إلى الجامعة الاميركية في بيروت من جديد.

*** يُفهم من سردك أنك عشت المأساة في فلسطين، على حقيقتها. هل معنى ذلك أن هذه المعايشة هي التي قادتك بعد ذلك إلى طريق العنف؟**
ثم كيف سارت الأمور بعد عودتك إلى بيروت؟ وهل يمكن الافتراض أن بداية التفكير بالعمل الثوري كانت نتيجة غضب أم نضوج؟

- كنتُ قبل أن أسافر إلى فلسطين أسمع وأنا في الجامعة من شبان فلسطينيين وغير فلسطينيين أن التنظيم هو الطريق الصحيح إلى أي عمل. أنا أطالب بالتدريب على السلاح والتسلح والانضمام إلى جيش الانقاذ وهم يقولون إن التنظيم هو الأساس. ثم انضممت إلى حلقة دراسية اسمها «العروة الوثقى». وقبل أن أسافر إلى اللد جرت انتخابات لرئاسة الجمعية بين قائمتين: قائمة برئاسة زميل وصديق من سورية اسمه ادمون قلباوي، وقائمة أخرى منافسة، وكنتُ نائب الرئيس في قائمة قلباوي. وفي اللد نسيت أمر الجمعية، لكنني بعدما عدت إلى الجامعة وجدت أن «العروة الوثقى» هي الطريق للتعبير عن ردود الفعل عما جرى لفلسطين. أصبحت الجمعية هي الاطار الذي من خلاله يمكننا التعبير عن مواقفنا ومشاعرنا تجاه ما حدث لفلسطين. وبدأنا نضع برامج لهذه الجمعية عبارة عن محاضرات وندوات.

وفي ذلك الوقت كانت هنالك حالة غليان شعبية لأن فلسطين ضاعت وقامت دولة اسرائيل. وعندما انصرفت إلى إعداد البرامج واختيار الأسماء بدأت أشعر بأنني انسان جديد.

وأتذكَّر الآن كيف أن «الوست هول» ضجت حماسة عندما ألقى عمر أبو ريشة قصيدة (وكان أحد الذين وُجِّهت اليهم الجمعية دعوة لإلقاء بعض القصائد). كان الحاضرون في حالة غليان حقيقي، وكان أبو ريشة متألقاً.

وبعدما كثُر إلقاء محاضرات حول الثورة والكفاح المسلح في جمعية «العروة الوثقى» بدأ نوع من الاحتكاك بيننا وبين ادارة الجامعة، وكانت حجة الادارة أن مهمة الجمعية - ما دامت مرخَّصة على أنها جمعية أدبية - إحياء التراث الفكري والأدبي العربي، وليس الحديث عن ضرورة الثورة والعمل المسلح والانقلابات.

بالإضافة إلى المحاضرات كنا نعقد ندوات. كل ندوة تضم عشرين أو ثلاثين من أعضاء الجمعية. وفي هذه الندوة يتحدث كل واحد عن قضية يهمه التحدث فيها. وكانت قضية فلسطين هي القضية التي يتحدثُ عنها الجميع. وكنتُ سعيداً جداً في هذه الندوات لأنها كانت المكان المناسب لأُعبِّر فيها عن أفكار تدور في خاطري. كنتُ أريد أن أقول أشياء كثيرة عما حدث ولا يكفي أن أقولها بيني وبين نفسي، وإنما أشعر بالحاجة إلى أن أقولها أمام الآخرين وأناقشهم ويردون عليَّ... وهكذا!

وفي الندوات قلنا الكثير. وشعرتُ وأنا أقول ما هو مختزن في نفسي أنني أؤدي دوراً مهماً نسبياً للقضية. وفي تلك الندوات أيضاً التقى الجميع حول ضرورة عدم الاستسلام وعلى أن الخونة يجب أن تُقطع رؤوسهم. والتقى الجميع أيضاً على أن الثورة ضرورية من أجل القضية العادلة.

ولقد إصطدم نهجنا الثوري في ذلك الوقت بنهج اصلاحي - وأنا اليوم أصنف النهجية على أساس نهج ثوري ونهج اصلاحي - وبعناصر وطنية.

وعلى سبيل المثال إصطدم نهجنا بالدكتور قسطنطين زريق الذي قابل حماستنا ومطالبنا بدعوتنا إلى أن نهدأ. وكيف نهدأ بعد الذي جرى؟ وكيف لا ننادي بتعليق المشانق للذين خانوا وتخاذلوا وتركوا فلسطين تضيع؟

لم يكن في ذهننا آنذاك التصور للتنظيم الذي نعمل من خلاله على تحقيق أفكارنا ومطالبنا. ومع نهاية العام 1949 تبلورت شخصية جمعية «العروة الوثقى» خصوصاً بعد الأثر الذي تركه احتكاك ادارة الجامعة الأميركية بنا. وجرت انتخابات جديدة في الجمعية. وكانت المعركة هذه المرة عنيفة وبين قائمتين: قائمة برئاستي ضد قائمة من الشيوعيين الذين كنا في خلاف حاد جداً معهم بسبب ابتعادهم عن موقفنا واتخاذهم موقفاً غريباً. ولعل الموقف الذي اتخَذَتْه فيما بعد «حركة القوميين العرب» من الشيوعية والشيوعيين كان ناتجاً عن نظرتهم السائدة في تلك الفترة.

نحن كنا في حالة غليان لأن فلسطين ضاعت، ونطالب بشنق الذين أضاعوها. والأحزاب الشيوعية كانت ترى أن اسرائيل قامت ولا قدرة على إزالتها.

وكسبنا المعركة في وجه الشيوعيين. وبعد ذلك بدأنا في «العروة الوثقى» نطرح تساؤلات من نوع: النشاط الذي نمارسه لا يكفي ويجب أن نتدرب على استعمال السلاح.

ومنطلق طرح التساؤلات اننا قلنا ما فيه الكثير عن الذين أضاعوا فلسطين. وفي تلك الفترة كانت أفكارنا تتركز حول الذين خانوا القضية، وليس حول الدولة التي قامت على أنقاض فلسطين. كان همنا الوحيد أن نعاقب الذين خانوا فلسطين. وكان تصورُنا في ذلك الوقت قائماً على أساس أنه لمجرد أن ينتهي أمر الخونة، فإن الأمة العربية تصبح بجماهيرها قادرة على أن تواصل المعركة.

كانت أسماء الملك عبدالله وغلوب باشا وشكري القوتلي والملك فاروق وبشارة الخوري وآخرين تعني بالنسبة الينا الكثير. كنا نرى هذه الزعامات مدانة وأنه لا سبيل إلى ازالتها ومعاقبتها بغير استعمال السلاح.

وخلال فترة وجدتُ بعض الزملاء في الجامعة موافقين على فكرتي المتعلقة بضرورة التدريب على استعمال السلاح. ولجأنا إلى صديق لبناني (هو الآن تاجر كبير) يملك بندقية صيد. وقررنا أن نبدأ التدرب على بندقية الصيد. وبالفعل كنا نذهب إلى هذا الصديق في منطقة بيت مري ونتدرب على اطلاق النار.

في الوقت نفسه حدث بيننا وبين مجموعة في سورية، كانت أفكارها متلاقية

مع أفكارنا، لقاء بترتيب من هاني الهندي. وكانت مجموعة سورية متصلة بشكل أو بآخر بمجموعة مصرية قليلة العدد يقودها حسين توفيق الذي كان لاجئاً في سورية.

وجرت بيننا وبين المجموعتين لقاءات عدة قررنا خلالها أنه لا بد من إنشاء تنظيم.

الفصل الثالث

من محاولة اغتيال الشيشكلي
إلى ضرورة إنشاء تنظيم جديد

*** لقد إرتبط اسمك بتدبير محاولة لإغتيال أديب الشيشكلي. ما هي مسؤولية الشيشكلي إزاء نكبة فلسطين؟**
ثم هل بعد اللقاءات مع المجموعة السورية والمجموعة المصرية نفَّذتَ أو شاركتَ في تنفيذ عمليات فدائية، وما ابرز هذه العمليات؟

- عندما قررنا بعد الاجتماعات التي تمت بين مجموعة بيروت ومجموعة سورية والمجموعة المصرية أنه لا بد من إنشاء تنظيم ناقشْنا بعض القضايا التنظيمية من نوع أن عضو التنظيم يجب أن يعرف عضواً واحداً في هذا التنظيم. كذلك ناقشْنا وسائل الاتصال بين أعضاء التنظيم.

وفي تلك الفترة لم يكن عندنا فكر سياسي وإنما كان هنالك هدف واضح وهو ضرورة القيام بعمليات اغتيال للذين خانوا فلسطين وأضاعوها. وحتى تجربة المحاضرات والندوات من خلال «العروة الوثقى» لم تكن كافية بالنسبة إليَّ مثلاً لتكوين فكر سياسي متكامل.

كانت القضية أمامنا مطروحة بشكل مبسط ومحدد وهي أن هنالك من خان وتخاذل فأضاع فلسطين ويجب أن نتدرب على السلاح ونحصل عليه ونغتال الخائن والمتخاذل.

ولقد قمنا بالفعل بمجموعة عمليات مسلحة فألقينا القنابل على بعض السفارات ووضعْنا خططاً لاغتيال الملك عبدالله وغلوب باشا ونوري السعيد.

في تلك الفترة كانت التسمية التي أطلقناها على تنظيمنا هي «كتائب الفداء العربي». وكان النهج السياسي لهذا التنظيم ضيّقاً وخلاصته أننا نحقق الأهداف عن طريق العنف.

وإستمر التنظيم يعمل بشكل طبيعي إلى أن وقعت حادثة جعلت الخط الثوري يرتطم بالفشل. وكان ذلك بعد أن طرحت مجموعة مصر اغتيال أديب الشيشكلي كهدف من أهداف التنظيم. ولما كان الشيشكلي ليس واحداً من المسؤولين في نظرنا عن نكبة 1948، لأنه لم يكن على رأس السلطة عندما حدثت النكبة فإننا (أقصد هنا مجموعة بيروت) سألْنا مجموعة مصر عن سر اختيارها الشيشكلي. وخلال النقاش شعرْنا أن أهدافنا ليست متفقة مع أهداف مجموعة مصر. هدفنا ضرب المسؤولين عن النكبة والسفارات الاستعمارية. وهدف مجموعة مصر يختلف تماماً عن هدفنا. ولم نوافق مجموعة مصر على هدفها. لكن هذه المجموعة استمرت تفكر في مهمة اغتيال أديب الشيشكلي.

وذات يوم فوجئنا ونحن في بيروت بمانشيتات في الصحف حول محاولة لاغتيال أديب الشيشكلي وأن الجهة التي نفَّذتها كانت تنظيماً جديداً يدعى «كتائب الفداء العربي»، وفهمنا أن مجموعة مصر ذكرت خلال التحقيق كل شيء، على ما يبدو، واعترفت بالاسماء وبينها إسمي وأسماء الرفاق أعضاء مجموعة بيروت.

واتفقنا (أعضاء مجموعة بيروت) على أن نختفي، لأنه ليس معروفاً متى تطالب السلطات السورية لبنان باعتقالنا وتسليمنا، يضاف إلى ذلك أن السلطات اللبنانية، من دون أن تطلب سورية منها، قد تلقي القبض علينا، أو أن ادارة الجامعة قد تطلب من السلطات ذلك.

واجتمعنا لتدارس المسألة وتقرر أن يتخذ كل من أعضاء المجموعة خطاً. وعلى سبيل المثال فإن الخط الذي اتخذْته كان ترْك الجامعة الأميركية مؤقتاً والاختفاء في بيروت. وخلال حصولنا على المتفجرات من شخصيات لبنانية مساندة للحركة الوطنية الفلسطينية كانت قد توثقت بيننا وبين هذه الشخصيات علاقات جيدة.

ولذا كان من السهل تأمين أمر الاختفاء.

كنتُ في السنة الخامسة من دراسة الطب عندما قررتُ الانقطاع عن الدراسة والاختفاء. لكن الانقطاع لم يطل لأن الشيشكلي كان مرناً وذكياً، ولم يتشدد في مسألة محاولة اغتياله، ربما لأنه وجد أن المواطنين سيقفون في صف الذين رتبوا للاغتيال، وسيبررون لهم محاولتهم التي تمت في ظل الهزيمة. وأتذكَّر أن الأحكام التي صدرت تراوحت بين البراءة وبين السجن مدة غير طويلة.

*** من هم أعضاء مجموعة بيروت، وهل عندما تأسست «كتائب الفداء العربي» كان أعضاؤها مدرَّبين على استعمال السلاح؟**
وإلى ذلك هل نفَّذتَ في تلك الفترة عملية ارهابية وماذا كان شعورك بعدما نفَّذتها؟
ثم ما هي مشاعر والدتك عندما أوردت الصحف اسم ابنها، الذي كانت تنتظر تخرُّجه طبيباً، كإرهابي عضو في تنظيم يخطط للاغتيال؟

- لم تكن مجموعة بيروت كبيرة. وكقيادة كنا خمسة: أنا وهاني الهندي وثلاثة آخرون. واختيار أعضاء لمجموعة ارهابية لم يكن مسألة سهلة. ومع ذلك استطعنا تجنيد عدد من الزملاء من داخل الجامعة الأميركية ومن خارجها. لقد كان هنالك العشرات الذين يصلحون للتظاهر وإلقاء المحاضرات، لكن الذين يصلحون لإلقاء المتفجرات كانوا قلة. ولقد تدرَّبنا على وسائل القاء القنابل وتفجير الديناميت، وكنا نحسب ألف حساب للعملية التي ننفِّذها. نريدها ناجحة مئة في المئة، ونحرص على ألاَّ يصاب أحد من أعضاء المجموعة وهو يقوم بعملية إرهابية. وإستغرق التدريب فترة طويلة وشمل طريقة حمل الصفائح المملوءة بالمتفجرات، وأين يجب وضْع الصفيحة بحيث يؤدي الإنفجار إلى تحقيق الغرض المطلوب، وكيف يجب أن يبتعد واضِع صفيحة المتفجرات عن مكان وضْعها، وكيف يتم إشعال الفتيل. ولقد تعلَّمنا كل ذلك في دورات خاصة وعلى أيدي أشخاص مدرَّبين.

ونفَّذنا بضع عمليات استهدفت مؤسسات استعمارية. ولقد القيتُ شخصياً

بضع قنابل وشاركتُ في محاولات اغتيال. وكنتُ في غاية الحماسة وأنا أنفِّذ ذلك. وفي تلك الفترة كانت الحياة لا قيمة لها بالنسبة لي أمام ما حدث في فلسطين ولها. وأتذكَّر أنه بعد العملية الأولى التي نفَّذتُها شعرتُ براحة ضمير وباعتزاز، وبأن هذا الخط هو الطريق الذي يجب إتباعه من أجل التغيير والتحرير.

وبالإضافة إلى التدرْب على رمي القنابل والتفجير حصلْنا من السوق السوداء على عدد من المسدسات.

وفي الفترة التي اضطرتني الظروف للاختفاء لم يحدث أي اتصال بأهلي في الأردن. لكن عندما التقينا بعد فترة شعرتُ أنهم معتزون بما أفعله وقلقون في الوقت نفسه عليَّ، وطبعاً تمنت الوالدة عليَّ وقف هذا النشاط واكمال دراستي والعودة اليها طبيباً. وإلى الآن مازالت فترة الاختفاء ماثلة في ذهني. أتذكَّر البيت الذي اختبأت فيه في محلة البسطة والمقهى الذي كنتُ أتردد عليه والأصدقاء الذين كانوا يأتون إليَّ حاملين الصحف التي تحدثت عن تنظيمنا.

وبعدما بلغني من أصدقاء في حزب «النداء القومي» أننا لسنا مطلوبين من السلطة في لبنان، أنهيت فترة اختبائي وعدتُ إلى الرفاق والأصدقاء في الجامعة الأميركية. وهذه المرة كانت نظرة هؤلاء إليَّ مختلفة عن نظرتهم السابقة. أصبحوا ينظرون إليَّ بكثير من التقدير بعد الأعمال التي قمت بها واعتبروها مهمة بطولية.

ولقد أفادت الأعمال في توجيهنا من جديد إلى العمل السياسي حيث حظينا بتأييد من اطارات واسعة. بالإضافة إلى ذلك أتذكَّر أنني في الطرح السياسي لم تعد تتملكني الرهبة بفضل التجربة السابقة التي خضتها، تجربة المشاركة في العمل الثوري.

وجاءت فترة بدأتُ أطرح خلالها على الزملاء السؤال الآتي: وماذا بعد؟ ماذا بعد التخرج؟ وما هو الطريق الذي يجب أن نسلكه؟

واذا جاز التعبير فإن تفكيري أصبح مُركَّزاً على أن حركة الجماهير هي القوة التي تصنع التاريخ. وفي تلك الفترة بدأت عملية تفاعل بيننا وبين «حزب البعث»... الحزب الوحيد الذي لا يتحمل جزءاً من مسؤولية ما حدث في فلسطين ولها، أما الأحزاب الأخرى وبالذات الأحزاب الشيوعية العربية فإننا

شعرْنا كفلسطينيين أنه لا يمكننا التعامل معها بعد الموقف السياسي الذي اتخذَتْه من المسألة الفلسطينية، والذي يتلخص بأن اسرائيل أصبحت بمثابة أمر واقع وأن المعركة يجب أن تُخاض مع الاستعمار فقط، وهو موقف رفضناه وتمسَّكنا بحتمية القتال لاسترداد وطننا.

*** في تلك الفترة كان هنالك «الحزب القومي السوري الاجتماعي» وهو الحزب الأكثر انتشاراً، والذي كانت الجامعة الأميركية ساحة مهمة له.هل حدث تفاعُل بينكم وبينه خصوصاً أن نظرته إلى ما حدث في فلسطين لم تكن مشابهة لنظرة الشيوعيين، وهل حاولتم أن تتفاعلوا أو تُجرون مناقشات مع زعيم الحزب أنطون سعادة؟**

ثم كيف حدث التفاعل بينكم وبين «حزب البعث» وما هي طبيعة المناقشات التي جرت بينكم وبين ميشال عفلق؟

- الحزب القومي السوري كان بالفعل ظاهرة ضخمة في لبنان في تلك الفترة. ولأننا كنا متأثرين بفكرة القومية العربية وبكتابات قسطنطين زريق وساطع الحصري، فإننا دخلنا في مناقشات ومجادلات مع القوميين السوريين. وصحيح أن موقفهم من القضية الفلسطينية كان مختلفاً عن موقف الشيوعيين إلاَّ أن ذلك لم يكن حجة للتعاون معهم. أن نظرتهم إلى القومية العربية هي التي جعلتنا لا نتعاون.

وأتذكَّر أن كل المناقشات والمجادلات كانت حول الأمة العربية ومقوماتها والوحدة العربية وضرورة تحقيقها. ولم تحدث المناقشات على مستوى القيادات وإنما في اطار الكوادر في الجامعة الأميركية.

وفي إحدى المرات أخذني أحد أصدقائي من القوميين السوريين وهو الدكتور خليل حلبي إلى ندوة عقدها الزعيم انطون سعاده. وكان صديقي خليل يمدني بكتب ونشرات يصدرها الحزب. وعلى رغم أنه لم تحدث مناقشات مباشرة بيننا وبين أنطون سعاده إلاَّ أن مقالات كتبها في ذلك الوقت حول أن «العروبة

أفلست» جعلتنا نشعر أن المسافة بيننا وبين القومية السورية بعيدة جداً. إن فكرة القومية العربية كانت تشغل أذهاننا في تلك الفترة. وكنا غير مستعدين إلى تَقبُّل أي أفكار من نوع أفكار القوميين السوريين.

وحيال ذلك وجدْنا أن المجال الوحيد المفتوح أمامنا في تلك الفترة هو «حزب البعث»، عِلْماً بأننا انقسمنا قسمين بالنسبة إلى «البعث». قسم يرى أن «حزب البعث» هو المناسب لأن منطلقاته قومية عربية ولأنه يمارس عملية نقد للأنظمة العربية. وقسم يرى أن المطلوب تنظيم حديدي يعبئ الأمة العربية. وأصحاب هذا الرأي فينا كانوا يرون أنه بعد فشل التجربة الأولى للعمل الارهابي لا بد من تنظيم أفقُه عربي يبني نفسه عسكرياً من البداية، بمعنى أنه اذا كان لن يعتمد الخط الارهابي فعلى الأقل يجب أن يكون حديدياً.

وبعد التفاعلات الأولى مع «حزب البعث» شعرنا أن واقع الحزب لا يعيش مسألة الحديدية وإن كانت القيادات، التي جرت بيننا وبينها مناقشات كثيرة، لم ترفض الأفكار التي طرحناها. ولقد حدثت لقاءات مع الأستاذ ميشال عفلق وكنتُ من المبادرين إلى الالتقاء به. وكان يتمتع باحترامنا ومحبتنا ويؤثر فينا حديثه ونشعر بإخلاصه للقضية.

كنا و«البعث» ملتقين على أرضية واحدة لكن كان عندنا ما نشعر أنه يجب أن يضاف، وأقصد بذلك مسألة التدريب على السلاح واعتماد العنف. وربما كان تباطؤ «البعث» في هذه المسألة مرده أن قياداته لم تعش الحالة الانفعالية التي عشناها كفلسطينيين وغير فلسطينيين نتيجة لنكبة فلسطين.

ولم يكن ميشال عفلق رافضاً مسألة الحديدية لكنه كان يرسم لها تصوراً آخر لا يتفق مع الحاحنا في أن تُنفَّذ فوراً. ومع ذلك فإن عدداً من رفاقنا انضموا إلى «حزب البعث» وهؤلاء انطلقوا في انضمامهم من زاوية قومية «البعث» وقناعتهم بالتنظيم الجماهيري السياسي كمرحلة تسبق التنظيم الجماهيري المسلح الذي كنا ننادي به.

وعلى رغم أن «الحزب القومي السوري» كان حديدياً ومفاهيمه ارهابية إلاَّ أننا حيال مسألة العروبة لم نجد فيه الساحة الملائمة لانطلاقتنا في تجربة جديدة.

*** ما هي الخطوة التي اتخذتموها بعد ذلك؟ هل كانت إنشاء تنظيم يعكس أفكاركم واتجاهاتكم، أم إستمر التشتت قائماً ولماذا؟**

– في ضوء فشل «حركة الفداء العربي»، وعلى ضوء نتائج الحوار مع «البعث» وصلنا إلى قناعة أنه لا بد من تنظيم جديد. ولكننا طلاب تغمرنا الحماسة، وهذا لا يكفي لإنشاء تنظيم. وأتذكَّر أننا ناقشنا الأمر بكثير من الرويّة، واتفقنا على أنه قبل إنشاء التنظيم يجب تحديد ما نريد، ويجب أن نثبت بالممارسة العملية أننا نحن فعلاً في مستوى الأفكار التي نطرحها. كذلك يجب أن يثبت كل منا بالاخلاص والتضحية والاستعداد للعمل والتفاني أنه أهل لتحمُّل مسؤولية إنشاء تنظيم. إن هذه المفاهيم كانت شاغل أذهاننا في تلك الفترة، وربما أن ذلك ناتج عن صدمتنا بالعمل السياسي الذي كانت تشهده تلك الفترة. وكنتُ أتصور أن العمل الوطني في أشد الحاجة إلى الاخلاص والصدق والاستمرارية، أياً تكن التضحيات، والصبر والايثار، وهذا ما لمسناه بعد ذلك في «الغيفارية». إن ما هو قديم كان ساقطاً ومداناً. وكان من غير المعقول أن نعمل من خلال «حزب النداء القومي» أو «حزب الاستقلال» كما كان من غير المعقول أن نعمل تحت قيادة الحاج أمين الحسيني أو من خلال الأحزاب الشيوعية أو «الحزب القومي السوري». ولو أن «حزب البعث» كان مستعداً للتعبير عن الحيوية المطلوبة في تلك المرحلة لما كانت هنالك ضرورة للتفكير في إنشاء تنظيم.

كان يجب تحديد ما نريد. فلا يكفي أن نقرر بأن الحاجة ضرورية إلى إنشاء تنظيم، وإنما يجب أن نثبت بالممارسة أن ما نقوله ونعيشه كطلاب سيستمر بعد ذلك رغم أي تضحية. كنا اذا جاز التعبير مشدودين إلى مسألة المسلكية الثورية.

وفي الوقت نفسه طرحْنا على أنفسنا السؤال الآتي: في انتظار أن ننشئ التنظيم ماذا نفعل؟ هل نهتم بالدراسة أم ننصرف إلى النشاط السياسي؟

في تلك الفترة كانت الساحة تغلي بقضايا عربية وبقضية فلسطين. وكان الحديث حول الأمم المتحدة ووكالة الغوث ومشاريع الاستيطان بهدف حل

القضية الفلسطينية، وفوق ذلك كان الحديث حول الأحلاف بدأ يتردد.

واتفقنا على أنه من الممكن المزج بين الدراسة والعمل السياسي. وهذا ما حدث. وبدأنا نُصدر نشرة سميناها «الثأر» ومن حين إلى آخر أصدرنا بيانات تحمل توقيع «الشباب القومي العربي» نحدد فيها مواقفنا ومطالبنا.

ثم اتفقنا بعد ذلك أنه لا بد من دراسة أخرى تساعدنا على توضيح معالم الطريق، من دون أن يجمِّد ذلك نشاطاتنا النضالية. والدراسة المقصودة هنا هي قراءة كل التجارب الثورية في العالم لنعرف بعمق كيف حققت بعض الأمم والحركات أهدافها، ولإستخلاص العبر والدروس من تلك التجارب. ولعل الذي فرض علينا الاهتمام بهذه القراءات ما كان يُكتب حول اسرائيل وكيف أنها انتصرت لأنها أرقى حضارياً وعلمياً وتنظيماً من العرب.

وأذكر أننا قرأنا في تلك الفترة الكثير عن الوحدة الايطالية والوحدة الالمانية. قرأنا أيضاً عن تجربة الثورة في روسيا. وعلى الصعيد العربي وضعْنا قائمة بسلسلة من الكتب التي تعالج تاريخنا، وبرمجنا قراءاتنا بحيث أنه يجب انجاز قراءة هذه الكتب في موعد محدد. وكنا بعد أن نقرأ كتاباً للينين مثلاً نناقشه بدقة ونتبادل وجهات النظر في شأن ما قرأه كل منا. كذلك ركزنا على الكتب التي تعالج «الحركة» الصهيونية، وفي خلال فترة قراءة وجيزة ومكثفة أمكننا أن نقف على أمور كثيرة.

ووسط هذا الجو كانت مسألة الإخلاص والتفاني والإيثار والاستمرار هي الشاغل الأساسي. وكان كل منا يتساءل بينه وبين نفسه وأمام زملائه: هل بعد أن نتخرج سنستمر كما نحن، أم سينصرف الطبيب إلى عيادته والآخرون كل إلى مجال تخصصه؟

وأنهينا الدراسة وافترقنا على أساس أن ننتظر نتيجة امتحان كل منا بمعنى هل سيستمر مستعداً للنضال أم أنه سينصرف إلى الحياة العامة. واتفقنا على أن ننشط في استمرار ونبقى على اتصال.

وتَفرَّق شمل «مجموعة بيروت». أنا والدكتور وديع حداد ذهبْنا إلى الأردن، وعاد الدكتور أحمد الخطيب إلى الكويت وهاني الهندي إلى سورية. وبقي بعض

أعضاء المجموعة في لبنان.

تَفرَّق الشمل على أساس أن يبذل كل عضو أقصى ما يمكنه من النشاط والتضحية.

واتفقنا على أن نلتقي بعد أن يكتشف كل منا في فترة زمنية محددة قدرته على الصمود.

الفصل الرابع

التأسيس والتمويل
والمسألة الاجتماعية

*** استكمالاً لتوضيح فترة التفكير بإنشاء التنظيم هناك تساؤلات كثيرة:**
- كيف نجحتم في دراستكم على رغم انهماك أعضاء المجموعة بالنشاطات السياسية؟
لماذا لم تتخذ ادارة الجامعة الأميركية مواقف ادارية منكم بعد الذي فعلتموه؟
ثم من أين كنتم تأتون بالمال لتمويل نشاطكم السياسي المكثف وهل كانت هنالك جهة ما تمولكم؟

- بالنسبة إلى دراستي، هنالك مسألة مهمة وهي أن الفترة الصعبة هي فترة التأسيس، أي السنة الأولى، وإلى حد ما السنة الثانية. ولقد أنجزتُ السنتين والقضية الفلسطينية لم تكن مطروحة بعد. وكانت علاماتي وعلامات وديع حداد وأحمد الخطيب في هذه الفترة جيدة، لكن معدلاتنا انخفضت بعد ذلك نتيجة لتصاعُد نشاطنا السياسي، من دون أن يؤثر ذلك كثيراً على سير الدراسة من أجل الحصول على الشهادة.

أما ادارة الجامعة فإنها كانت ضد نشاطنا. وللمرة الاولى اتخذت في تلك الفترة قراراً بطرد مجموعة من الطلاب لكنها عادت عن القرار نتيجة ردة فعل طالبية واضراب. وأذكر أن ثلاث حالات صِدام وقعت مع الادارة، وكان رد فعل

الطلاب يحسم الأمر لغير مصلحة الادارة. ولم تكن ردة الفعل مقتصرة على طلاب الجامعة الأميركية لأننا أنشأنا علاقات مع طلاب كلية المقاصد والمدارس الثانوية والرسمية ومع طلاب في طرابلس وصيدا. وهذه الروابط والعلاقات جعلت الحركة الطالبية تشكِّل اداة ضغط على الحكومة التي كانت بدورها تطلب من ادارة الجامعة الأميركية التراجع عن أي قرار تتخذه ضد بعض الطلاب.

أما مسألة التمويل فإن نشاطنا تلك الفترة لم يكن يحتاج إلى المال. لا مكاتب عندنا ولا صحيفة. نفقاتنا كانت بسيطة جداً. كنا نحتاج فقط إلى تكاليف طبع منشور أو نشرة، وكنا نجمع التكاليف من بعضنا. ولو أننا طفنا على الجماهير التي كانت تتجاوب مع أفكارنا لحصلنا منها على ما نريد. لكننا قررنا كعملية اختبار تخصيص نصف مخصصاتنا لتمويل نشاطنا السياسي. ولم يتبرم أحد من ذلك. أن المال ضروري لو كانت عندنا مكاتب وعناصر متفرغة ومؤسسات وصحيفة. وفي تلك الفترة لم يكن عندنا ما يوجب الحصول على المال الكثير. وعندما كنا ندعو إلى تجمُّع جماهيري كان المواطنون يأتون إلى مركز التجمع على نفقتهم. كل مواطن يدفع أجرة «الباص» الذي ينقله وكان يدفع بحماسة.

وبعد التخرّج والتفرّق واتساع النشاط أصبح الحصول على المال ضرورياً. فقد قررنا اصدار نشرة في بيروت وأخرى في الكويت ونشرة في عمان ونشرة في سورية. وحيث أن كل واحد منا أصبح له دخل فإنه كان يقتطع قسماً من دخله لتمويل النشرات. وأتذكَّر أن الدكتور أحمد الخطيب أصبح بعد عودته إلى الكويت طبيباً يتقاضى مئة دينار شهرياً. وكان يحتفظ لنفسه بعشرة دنانير من هذا المبلغ ويخصص الباقي للتنظيم. الشيء نفسه بالنسبة لي وإلى الدكتور وديع حداد.

كنا نقتطع القسم الأكبر من دخل عيادتنا في عمان للتنظيم. وكنا في الوقت نفسه نطالب بقية أعضاء التنظيم بأن يفعلوا الشيء نفسه، انطلاقاً من اعتبارنا أن ذلك مقياس مسلكي يعبر عن الاخلاص والصدق والاستعداد للتضحية والإيثار والتفاني. بالإضافة إلى ذلك إن كل واحد منا ترهّب للعمل السياسي. عشنا على هامش الحياة العائلية وانصرفنا إلى الجماهير والتفكير بالتنظيم. وفي خلال أربع سنوات أصبحنا فصيلاً من فصائل حركة التحرر العربي، وفي العام 1956-

1957 أصبح اسم «حركة القوميين العرب» يُدرج مع أسماء بقية حركات التحرر في الوطن العربي.

ولقد اتفقنا بعد أن تخرَّجنا من الجامعة الأميركية وعاد كل إلى بلده يمارس العمل أن نلتقي مرة كل ثلاثة أشهر، على أساس أنه في هذه الفترة يكون الواحد قد إختبر نفسه وقدرته على الصبر والاستمرارية والصدق والتفاني، وبذلك يصبح إنشاء التنظيم بعد ذلك أمراً سهلاً وطبيعياً.

*** عندما تقول إنكم بعد تخرجكم تفرَّق شملكم متفقين على اللقاء مرة كل ثلاثة أشهر، هل يعني ذلك أن الاتفاق كان بين القيادة غير المعلنة، أو القيادة المفترَضة لـ«حركة القوميين العرب»؟ وهل أن الاتفاق على بداية العمل التنظيمي تم في بيروت وما هي ظروفه وهل كان هنالك قياديون آخرون بالإضافة إليك وإلى وديع حداد وأحمد الخطيب وهاني الهندي؟**

– قرار إنشاء التنظيم إتُّخذ صيف 1951، لكن القرار لا يعني أن التنظيم انشئ في تلك الفترة لأننا إتفقنا على ضرورة خوض تجربة ذاتية نقرر في ضوئها إعلان إنشاء تنظيم على مستوى الوطن العربي أم لا. وقرار إنشاء التنظيم إتُّخذ ونحن على أهبة التخرج. وكان ذلك خلال لقاء في «مقهى محيو» في محلة «الروشة». كان صاحب المقهى صديقنا وكنا نجتمع هناك ونتداول ونتناقش. والذين حضروا الاجتماع كانوا ثمانية. اربعة آخرون بالإضافة إلينا وهؤلاء الاربعة لم يواصلوا المسيرة.

وفي هذا الاجتماع ناقشنا مسألة البقاء في بيروت أو عدمه بعد التخرج، وركزنا على الناحية الشخصية في مسلكيتنا متفقين على أنه لا يجوز أن يتصرف أي عضو في مسألة من دون قرار اجماعي. اذا كان يريد الزواج أو السفر أو العمل في قطاع ما، عليه أن يأخذ موافقة الجميع. ويجب أن يكون هنالك التزام من العضو برأي الجميع.

وعندما تخرَّجتُ عام 1951 ونلتُ شهادة الطب كان أمام أحمد الخطيب ووديع

حداد سنة أخرى لكي يتخرجا. وفي اجتماع الروشة ناقشْنا المسألة. هل أذهب إلى الأردن أم انتظر في بيروت إلى حين تخرُّج أحمد الخطيب ووديع حداد؟ واذا أنا ذهبت إلى الأردن هل أستطيع ممارسة نشاط سياسي من خلال العيادة التي افتتحها هناك أم لا؟ وتوصلْنا بعد المناقشة إلى أنه من الأفضل بقائي في بيروت.

في تلك الفترة كان أهلي قد أبلغوني أن في استطاعتي العودة إلى الأردن والاقامة في عمّان وأنهم توسطوا في هذا الشأن وحصلوا على وعد بأنَّ ربْط اسمي بمحاولة اغتيال الملك عبدالله لن يحول دون عودتي. وقالوا لي أيضاً إن في إمكاني فتح عيادة في عمّان.

وفي تلك الفترة أيضاً كانت الحاجة إلى الأطباء كبيرة. وكانت السعودية والكويت وامارات الخليج تطلب من الجامعة الأميركية مدها بأطباء.

وبسبب القـرار الذي إتُّخذ في اجتماع الروشة لم أسافر إلى الأردن، كما انني لم أقبل العمل في احدى الدول المحتاجة إلى أطباء.

وكان منطلق الزملاء أنه يجب ألاَّ نفترق عن بعض ونواصل العمل سنة أخرى لتوضيح معالم التنظيم. ولما كان أمر بقائي في بيروت على رغم تخرُّجي يحتاج إلى تغطية فقد اتفقنا على أن أطلب تمضية سنة في البحث العلمي. وطلبتُ من مدير كلية الطب الدكتور غنطوس تحقيق رغبتي فأجابني إن هوايتي هي «الفيزيولوجي»، وليس هنالك سوى دائرة «الهيستولوجي». ولما كان الهدف هو البقاء وليس البحث العلمي، فإنني أبديتُ موافقتي على الالتحاق بالدائرة المتوافرة. وبدأتُ في ذلك العام (1951–1952) أعمل باحثاً في المختبر وأوقفتُ نشاطي العلني وبدأتُ التقي سراً بالزملاء. صادف في تلك الفترة أن كان مطروحاً في الساحة السياسية مشروع «حلف الدفاع المشترك»*. واتخذنا في اجتماع سري قراراً بتنظيم تظاهرة ضد المشروع. وتجمع المتظاهرون أمام كلية الطب. وفي الوقت نفسه

* مشروع حلف عسكري عُرف ايضًا بـ«مبدأ أيزنهاور» روجت له الولايات المتحدة ليضم بعض دول المنطقة وبالذات العراق وتركيا والأردن وذلك لمواجهة الشيوعية الدولية الحالمة باستقطاب دول في المنطقة مثل سورية.

حشدت السلطة قوة لمنع التظاهرة. كان التحدي كبيراً. المتظاهرون في وجه رجال الشرطة المسلحين. والطرفان في حالة تأهب. وكنتُ واقفاً أمام باب الكلية أتفرج. وعندما وصل التحدي إلى ذروته، أي إلى اللحظة التي سبقت تحرك التظاهرة أو عدم تحركها وجدتُ نفسي أسارع نحو الصف الأول من المتظاهرين وأُمسك بأيادي الزملاء ونقتحم الباب الحديدي المغلق بجنـزير ونصطدم برجال الشرطة. وأُلقي القبض عليَّ وعلى وديع حداد الذي أصيب بضربة على رأسه. وبعدما انتهى أمر التظاهرة شعرتُ بضميري يؤنبني حيال الدكتور غنطوس. وقلت له: يبدو أنني لن أتابع مسألة البحث العلمي. وغادرتُ إلى عمَّان.

وبعدما تخرَّج أحمد الخطيب ووديع حداد، وكنا قررنا أسلوب التحرك، لحق بي وجيع إلى عمَّان حيث كنتُ استأجرتُ عيادة. وبدأنا نعمل طبياً وسياسياً. وكان من ضمن برنامجنا الاتصال بأوسع قواعد الجماهير والتفاعل معها واختيار العناصر المناسبة لتنظيمها. وفي تلك الفترة كنا مشدودين إلى تعبير «الجماهير» الذي لم يكن له محتوى طبقي آنذاك. وفي افتتاحيات جريدة **الرأي** التي أصدرناها عام 1953 كنا نستعمل في استمرار تعبير «الجماهير الفقيرة البائسة المعذّبة».

وقررتُ أنا ووديع استقطاب الجماهير عن طريق إنشاء مدارس لمكافحة الأمية. وكنا ننزل إلى الشارع الذي تقع فيه عيادتنا، وهو شارع شعبي، فنسأل الشاب الذي يمسح الأحذية عن أحواله وعن عائلته وعما اذا كان يقرأ ويكتب. وكان عندما يقول لنا هو وغيره إنه أمي نسأله اذا كان مستعداً للحضور إلى مدرسة تعلِّمه مجاناً القراءة والكتابة. وعندما كان يوافق كنا نعطيه عنوان عيادتنا. وحدث تجاوب ضخم ربما لأن المواطن يثق بالطبيب. وبالإضافة إلى العيادة التي كانت في الوقت نفسه مدرسة لمحو الأمية، أنشأنا عيادات مجانية في المخيمات وناديا ثقافياً في عمان. وكان في ذهننا ونحن نفعل ذلك التقاط العناصر التي يمكن توعيتها سياسياً وتحضيرها لعمل تنظيمي.

وسط هذا الجو أبدت عناصر نعرفها من الجامعة الأميركية في بيروت ومنها نزار جرداني وبطرس صيدي وعلي منتو أستعدادها للعمل معنا. وهذه العناصر التي تنتمي إلى عائلات غنية كانت لها مواقف وطنية. وأصبحت هذه العناصر

جزءاً من الهيئة القيادية. وكنا نأمل أن تعيش هذه العناصر عيشتنا وتقاتل مع الجماهير الفقيرة وأبناء المخيمات لكن ذلك لم يحدث. وعلى رغم التناقض الذي حدث بيننا وبين هذه العناصر، إلاَّ أن وضعها الطبقي فتح أمامنا مجالاً كنا نحتاج إليه وهو أن نصبح وبسرعة قوة سياسية في الأردن.

وفي ظل هذه الظروف أصدرنا مجلة «الرأي» التي انتشرت بسرعة وأصبح الناس ينتظرونها كل أحد. ولولا تلك العناصر لما كنا حصلنا على امتياز بإصدارها، ذلك أن الترخيص لا يُعطى إلاَّ لأردني.

ولقد جربت هذه العناصر دفع تجربتنا في اتجاه معيَّن، لكن الموضوع حُسم عام 1957، عندما تعرضت الحركة الوطنية في الأردن إلى عملية قمع. وقد ضَعُف دور هذه العناصر وتركت العمل معنا.

وتبقى الاشارة ضرورية إلى أننا في اجتماع الروشة لم نتخذ قراراً بإطلاق اسم «حركة القوميين العرب» على تجمُّعنا. ففي ذلك الوقت كنا نجتمع كشباب قومي عربي يُصدر نشرة «الثأر» ومسألة الاسم كانت مرتبطة أولاً بإنشاء التنظيم. ولم نبحث مسألة الاسم أو مسألة تصنيف تجمُّعنا على أنه حزب أو حركة إلاَّ في المؤتمر الأول الذي عقدناه عام 1956.

*** كيف نشأت «حركة القوميين العرب»؟ من أجل ماذا؟ وما هي مفاهيمها وشعاراتها وبماذا تختلف عن «حزب البعث» والقوى السياسية الأخرى المتواجدة في المنطقة؟**

ثم ما هي مفاهيمها التنظيمية وأوضاعها القيادية ولماذا اختيار تسمية «حركة» وليس «حزب». وهل لذلك مدلول معين؟

– إن الكثير من مفاهيم «الحركة» وشعاراتها بما في ذلك اسمها تَحدَّد قبل المؤتمر الأول للحركة عام 1956. واذا اعتمدنا العلمية والدقة فإن «حركة القوميين العرب» هي وليدة نكبة 1948 ووجودها مرتبط ارتباطاً مباشراً بالنكبة. وبعد نكبة 1948 ساد شعور في نفوس الشباب العربي بأنه لا بد من عمل ثوري. لا

بد من رد. لا بد من استرداد الكرامة. ولا بد من استمرار القتال. وفي تلك الفترة لم نكن مشدودين إلى القضية الاجتماعية التي نشأت نتيجة وجود اسرائيل، وإنما كنا مشدودين إلى النكبة التي حدثت والمأساة التي طرحت نفسها في الساحة والإهانة التي لحقت بالأمة وبكل شاب من شبابها. وفي الوقت نفسه كان يتملك الشباب نوعان من المشاعر. مشاعر ضرورة الرد، بل وواجب الرد على الذي حدث، ومشاعر اليأس من قدرة الأحزاب والتجمعات السياسية القائمة آنذاك على تحقيق ذلك. وفي ضوء هذا الواقع كان التفكير بتجربة جديدة.وصحيح أن «حركة القوميين العرب» أصبح هدفها توحيد الأمة العربية، إلاَّ أن الذي يمكن قوله أمانة للتاريخ إن ماحدث في فلسطين ولها هو الذي أوجب قيام الحركة. ومن هنا خصوصية القضية الفلسطينية ودورها في نشوء الحركة.

وتسمية «الحركة» لم تُتخذ بقرار. وهناك أمور كثيرة إعتُمدت من دون اتخاذ قرار في شأنها. اننا في الأصل لم نكن نعرف أن مسيرتنا ستستمر، وكنا نعمل من دون أن تقف عقبة في طريقنا مسألة اختيار الاسم. كنا نُصدر نشرات وفي كل مرة نذيِّلها بتوقيع، مرة بإسم «الشباب القومي العربي» ومرة بإسم «القوميون العرب» وفي مناطق معيَّنة عملْنا تحت اسم «هيئة مقاومة الصلح مع اسرائيل»، وأصدرنا نشرات حملت هذا الاسم، و«حركة القوميين العرب» كانت احدى التسميات.

وحتى قبل العام 1956 كان اسم «حركة القوميين العرب» يُستعمل في معظم النشرات التي نصدرها. وبالعفوية كان يحدث ذلك. لكن بعد المؤتمر الأول أثار بعض الرفاق مسألة الاسم. البعض تساءل: لماذا هذا الاسم بالذات. والبعض الآخر تساءل: هل نبقى نعمل تحت اسم «حركة القوميين العرب» وهنالك من تساءل: لماذا لا نحدد اسماً سياسياً لحزب؟

هذه التساؤلات وغيرها طُرحت بعد سنوات من استعمال اسم «حركة القوميين العرب» وأتذكَّر ان الذين طرحوا التساؤلات هم في الدرجة الأولى الرفاق اللبنانيون والسوريون. ومنطق الذين طرحوا التساؤلات هو أن اعتبار «الحركة» حزباً وله اسم يجعل التحرك أكثر فعالية وينقل «الحركة» من «تعبير علمي» إلى عمل سياسي، بمعنى أن «الحركة» هي على حد منطق الرفاق الذين طرحوا

التساؤلات «تعبير علمي»، أما الحزب فإنه «عمل سياسي». ويوم طُرحت هذه التساؤلات كان داخل «الحركة» تياران. التيار الذي يرى أننا أصبحنا معروفين بإسم «حركة القوميين العرب» وانه عندما سنختار اسماً جديداً فكما لو أننا نبدأ، على الأقل في نظر الناس، تجربتنا من جديد، وهذا معناه أن يتأثر الرصيد النضالي للحركة، كذلك كان هذا التيار يرى أن الأمور لا تتحدد بالاسم وأن «الحركة» أياً كان اسمها تكسب مضامينها في أذهان الناس. أما التيار الآخر فاستمر في اعتقاده أن اعتبار «الحركة» حزباً واختيار اسم جديد يطلَق عليها مسألة تضفي قوة سياسية على «الحركة» ولا تضعفها.

وأمام هذه الحال قررنا اجراء استفتاء في قواعد الحركة، فأقرت الأغلبية مبدأ استمرار العمل تحت اسم «حركة القوميين العرب». وبعد هذا الاستفتاء انتهى النقاش في مسألة التسمية.

*** تقول إنكم لجأتم إلى الاستفتاء. هل كان ذلك الاستفتاء الأول والأخير أم أنكم اعتمدتم مبدأ الاستفتاء بالنسبة إلى قرارات مهمة وخطيرة؟**

ثم هل أنت الذي إختار تسمية «حركة القوميين العرب» ولماذا لم تكن التسمية «حزب القوميين العرب»؟

وهل كان لكم في ذلك الوقت موقف من تسمية «الحزب» وماذا كانت تعني لكم هذه التسمية؟

ثم هل إنكم قررتم اختيار اسم «حركة القوميين العرب» لأن هنالك «حزب البعث» الذي يحمل تقريباً الأفكار والمبادئ نفسها التي طرحتموها أو معظمها؟

وثمة ملاحظة أساسية وهي أنكم لم تهتموا منذ البداية بالقضية الاجتماعية. هل معنى ذلك أن تلك الفترة لم تكن تحتمل أكثر من الشعار الذي طرحتموه وهو «وحدة. تحرر.ثأر»؟

- اعتمدنا مبدأ الاستفتاء مرات عدة. وفي استمرار كانت كلمة الأغلبية هي التي ترجح.

وأنا لا أتذكَّر تماماً ما اذا كانت المبادرة في اختيار اسم «حركة القوميين العرب» مني، لكنني في أي حال كنتُ أرى أنه من الأفضل استمرار العمل تحت هذه التسمية.

علمياً كنا ندرك أن أي عمل سياسي هو حزب. وفي الوقت نفسه،بالنسبة إلى تلك الفترة كنا نلاحظ أن كلمة «حزب» ليست مقبولة جماهيرياً. وأعترف أننا عندما بدأنا تجربتنا كنا مثاليين ومتفائلين أكثر من اللازم. واعتقدنا أنه من خلال دراستنا للواقع العربي والتاريخ العربي والوضع السياسي العربي والتجارب الثورية في العالم يمكننا الخروج بنظرية جديدة إلى الأمة العربية. ولقد استعملْنا هذا التعبير... أي «نظرية جديدة إلى الأمة العربية»، لكن الذي حدث هو اكتشافنا أنه ليس من السهل استخراج نظرية جديدة وأن رغبتنا كانت مجرد طموح بورجوازي صغير. ونحن نرى الآن أن في العالم أيديولوجيتين وليس هناك أيديولوجية ثالثة: الايديولوجية الرأسمالية والأيديولوجية الماركسية.

لم نتوقف كثيراً عند مسألة «النظرية الجديدة» وبدأنا تحركنا السياسي في الوطن العربي وفي أكثر من ساحة وكانت مفاهيمنا تتركز حول موضوع القومية العربية بمعنى أن العرب أمة واحدة ولابد من توحيدهم في دولة واحدة.

وكنا في ذلك نرد على كل الحركات الاقليمية والشعوبية في الوطن العربي. كان هذا منطلقنا الأساسي. وكنا نرى أن موضوع القومية هو الأساس في تنظيم المجتمعات في العالم، وان الدين هو العامل الذي ينظم علاقة الله بالانسان. ولعلنا في ذلك كنا نرد على الاخوان المسلمين وبقية الحركات الدينية في المنطقة. بالإضافة إلى مسألة القومية طرحْنا مسألة التحرر والسيادة والاستقلال للأمة العربية. أما الاقنيم الثالث من شعارنا وهو «الثأر» فكان القصد منه استرداد فلسطين.

في ضوء شعار «وحدة.تحرر.ثأر» اتسعت القاعدة الجماهيرية لـ«حركة القوميين العرب». وهذا الشعار لم يوجد بشكل عفوي كما قيل، ولا إتّخذ في المؤتمر الأول للحركة. كان قبل المؤتمر الأول وتم التوصل اليه من خلال المناقشات القيادية الأولى لدى تأسيس الحركة. ومن هنا اننا قررنا عن وعي الشعار الذي طرحناه. وفي هذا الشعار جواب عن الذين يتساءلون: لماذا لم نسر في خط «الاخوان المسلمين» أو في

خط «القوميين السوريين» أو حتى في خط «البعث»؟

وهذه في أي حال ليست كل المفاهيم التي طرحتْها الحركة. وهنالك مسألة في غاية الأهمية نتلمس من خلال الحديث عنها الجواب حول موضوع عدم التركيز على القضية الاجتماعية. إن «حركة القوميين العرب» اهتمت في تلك الفترة بالمرحلية. ولقد ناقشْنا هذه المسألة بالذات مع «حزب البعث» وكان رأينا أنه من السابق لأوانه رفع شعار الاشتراكية الذي كان «البعث» أول من رفعه. منطقنا في ذلك هو أن الثورة العربية تمر في مرحلتين متشابكتين ومتمايزتين في الوقت نفسه. المرحلة الأولى هي مرحلة الثورة السياسية. والمرحلة الثانية هي مرحلة الثورة الاجتماعية. والشعار الذي رفعناه وهو «وحدة.تحرر.ثأر» كان من أجل تحقيق الثورة السياسية. ولم نهتم بالثورة الاجتماعية لأن المطلوب في تلك الفترة كان تجميع غالبية الجماهير العربية وحشدها لخوض معركة سياسية هي معركة توحيد الأمة العربية وتحرُّرها واستقلالها. والتحرر في مفهومنا آنذاك لم يكن «التحرر الاجتماعي» وإنما «التحرر السياسي».

كانت المسألة مسألة أولويات. وكانت رؤيتنا أنه بعد تحقيق الثورة السياسية نقتحم ميدان الثورة الاجتماعية التي كانت تعني في تفكيرنا آنذاك «الثورة الاشتراكية». كنا لا نريد شبْكِ المرحلتين كي لا نفقد جماهير يمكن أن تقف معنا في مرحلة الثورة السياسية لكنها لم تقف اذا كنا نخوض مرحلة الثورة الاجتماعية في الوقت نفسه. ولو اننا خسرنا هذه الجماهير في مرحلة النضال السياسي لما كان لنا أن نحقق وبالسرعة المطلوبة انجازات بالغة الأهمية على هذا الصعيد. ونحن في تلك الفترة لم نكن نعتبر أنفسنا البديل لكل القوى القومية، بل أن فكرة الجبهة كانت مطروحة في استمرار... جبهة تضم كل القوى الوطنية القومية باستثناء الحركات الدينية والاقليمية، والأحزاب الشيوعية. ولأنه في تلك الفترة لم يكن لدينا النهج اللينيني الذي يقول بضرورة ايجاد التحالفات حول أي موقف سياسي أياً كانت الفوارق، فإننا اعتبرنا أن الايمان بالأمة العربية وحقها في التحرر واسترداد فلسطين، هو الحد الأدنى من الأمور التي يجب أن تلتف حوله القوى التي تتألف منها الجبهة. وفي أدبيات «الحركة» ما يوضح الكثير في هذا الشأن.

الفصل الخامس

اقتباس من لينين
وانسجام مع عبدالناصر

*** ما هي في تقديرك أهم المفاهيم التنظيمية التي تميزت بها «حركة القوميين العرب»؟**

– لعل مفهوم القيادة الجماعية كان وسيبقى أهم المفاهيم التنظيمية. واذا كان لابد من تحديد حيثيات لهذا المفهوم فإنها كالآتي: الحيثية الأولى هي منع التسلط والانفراد في اتخاذ قرار والحؤول دون نشوء نزعات فردية وديكتاتورية. والحيثية الثانية هي الايمان بأنه من خلال قيادة جماعية يمكن أن تتفاعل كل وجهات النظر حول أي قضية مطروحة بحيث يمكن بعد ذلك الخروج بالرأي الأكثر صوابية.

واعتماد القيادة الجماعية ليس على صعيد القيادة الأولى فقط، وإنما أيضاً على صعيد القيادات التي تلي القيادة الأولى، مكّننا من بناء كوادر وعناصر جديدة تتحمل المسؤولية.

بالإضافة إلى مفهوم القيادة الجماعية هنالك أيضاً مفهوم «القيادة للأكفأ». والغاية من هذا المفهوم هي أنه لا يجوز أن تتحول القيادة إلى موقع دائم أو منصب دائم على أساس الفترة الزمنية التي يقضيها العضو في الحركة. كنا حريصين على أن يكون الاعتبار الوحيد هو الكفاءة وليس أي شيء آخر، وبذلك تعيش أوضاعنا القيادية حالة صعود وهبوط. وبفضل هذه الحالة تتجدد القيادات في استمرار. والقصد من تعبير «الهبوط والصعود» هو أن العناصر التي تفشل في التجربة من

الضروري ألاَّ تعود تتحمل مسؤوليات قيادية، وان العناصر التي تبرز في صفوف القاعدة ولديها طاقات قيادية من الضروري أن تشق طريقها نحو مواقع القيادة.

ومفهوم القيادة الجماعية الذي اعتمدناه هو مفهوم لينين في التنظيم. أما مفهوم «القيادة للأكفأ» فإننا لم نقرأه في كتب وإنما تبلور لدينا من خلال مناقشاتنا الأولية.

من مفاهيم «الحركة» أيضاً مفهوم «القيادة في صف الأعضاء». والقصد من ذلك هو أن تبقى الصلة حميمة بين القاعدة الحزبية والقيادة، بحيث لا يصبح هناك نوع من القيادات الفوقية أو القيادات البيروقراطية أو القيادات التي تملي أوأمرها من فوق. لا بد أن تكون القيادة على صلة وثيقة بالقاعدة الحِزبية، وتتم عملية تفاعُل مشتركة ومتصلة بين القيادة والقاعدة. وقصدنا من هذا المفهوم هو أن تتحسس القيادة آمال القاعدة ومشاعرها وتقبل انتقادات منها، وبالمقابل تشعر القاعدة أن قيادتها من صنعها وأنها ليست قيادة مكتبية أو بيروقراطية.

*** هل كان هنالك في بداية نشوء «الحركة» حرص على مسألة الكم والكيف، بمعنى هل كان من هموم «الحركة» التي تتميز بتجمُّع من المثقفين استقطاب أعداد من الناس أم مجموعات منتقاة ومختارة بدقة. وهل حددتم منذ البداية مواصفات يمكن على أساسها الحصول على عضوية الحركة؟**

– الواقع أننا إعتمدنا مفهوم «النوعية قبل الكمية». وركزنا منذ البداية على «النوع» قبل «الكم» منطلقين في ذلك من قناعة بأن عشرة رفاق في مستوى معيَّن ومستعدين للالتزام الكامل والتضحية، أفضل من مئة رفيق بُنيتهم النضالية والثقافية غير سليمة، وأعتقد أننا في هذه المسألة بالغنا بعض الشيء، يضاف إلى ذلك أنه بسبب عدم وجود نظام داخلي، تركْنا الأمر للاجتهاد. كل محطة قيادية لها اجتهاداتها. وهذا المفهوم يختلف تماماً عن المفهوم الذي يعتمده أي حزب ثوري حيث أن من حق أي مواطن الانتساب إلى الحزب اذا وافق على البرنامج السياسي للحزب وعلى النظام الداخلي وأبدى استعداده للالتزام والعمل في مؤسسة من

مؤسسات الحزب وسدد الاشتراك.

صحيح أنه كان هنالك نوع من المبالغة بالنسبة إلى المفهوم الذي اعتمدناه إلى درجة أنه في احدى الفترات كان على العضو في «الحركة» أن يستأذن اذا كان يريد أن يتزوج... لكن هذه المبالغة أفادت في الوقت نفسه حيث أن نوعية الأعضاء كانت مثالية. فليس بالأمر العادي والسهل أن يكون العضو من النوع الذي تطلب منه «الحركة» أقصى مستويات التضحية فيوافق من دون أي نقاش.

ان نشأة «الحركة» تميزت بطابع «غيفاري» حيال المسلكية الشخصية للثوريين. وهذا ما كان يميزنا مثلاً عن حزب مثل «حزب البعث» نرفع معه شعارات واحدة، أو أن معظم الشعارات متشابهة والهدف واحد تقريباً.

كان الهدف من مسألة المسلكية الشخصية ذات الطابع «الغيفاري» هو أن يَهبَ العضو نفسه للعمل الثوري. وفي بداية «الحركة» كنا مشدودين إلى هذه الناحية كثيراً. وأتذكر أن بعض الرفاق القدامى يتندرون حول أكثر من واقعة تتعلق بتهيُّب الرفاق من مشاهدة فيلم سينمائي من دون أن تكون القيادة موافِقة على ذلك.

*** هل كانت المناقشة مباحة، وهل حدث أن القيادات الصغيرة انتصرت على القيادة الأولى؟ ثم لماذا لم تأخذ «الحركة» بمبدأ الانتخاب على أساس أنه مظهر ديمقراطي، وعلى أساس أن الانتخابات هي التي تفرز القيادات المتجددة والمتطورة وربما الأكثر ثورية؟**

- بين المفاهيم المهمة التي اعتمدتها «الحركة» هنالك مفهوم «المركزية المرنة» الذي يُنظِّم العلاقة بين المحطات القيادية الأعلى والمحطات القيادية الأدنى. وكان رأينا أن هنالك مركزاً يجب أن يسود خطه، وتعليماته يجب أن تُنفَّذ، وان أي خلاف بين القيادة الأولى وأي قيادة أخرى يجب أن يُحسم لمصلحة وجهة نظر القيادة الأولى. وايماننا بالمركزية قام على أساس أنها تجعل التنظيم صلباً ومتيناً وقادراً على الحركة الموحدة. وحرصاً على أن تُعطى المحطات القيادية الأدنى حق البت في الشؤون التي تخصها، لجأنا إلى استخدام مفهوم «المركزية المرنة» أي أننا أضفنا

كلمة «المرنة». والمقصود بـ» المرنة» أيضاً هو اتاحة المجال أمام النقاش والاستفسار والحوار، بالإضافة إلى أن يكون في وسع القيادات اتخاذ مبادرات من دون العودة إلى القيادة المركزية. هنالك أيضاً مفهوم «نفِّذ ثم ناقِش» المرتبط بمفهوم «المركزية المرنة» والذي ينظِّم العلاقة بين العضو والقيادة؟ والقصد من مفهوم «نفِّذ ثم ناقِش» ضمان الانضباط الصارم داخل التنظيم بحيث يستطيع التحرك في الاتجاه الذي يريده. ولنفترض أن التنظيم وجد أن من المناسب أو الضروري القيام بتظاهرة أو اتخاذ موقف سياسي سيطرحه على الرأي العام. في مثل هذه الحال ما الذي يجب أن يحدث؟ اذا كان العضو سيسأل ويناقش قبل القيام بالتظاهرة أو اتخاذ الموقف السياسي فمعنى ذلك أنه في ظل هذه الليبرالية لن يكون في وسع التنظيم التحرك بشكل سريع. ومن هنا كان الاصرار على أن العضو ينفِّذ أولاً ثم إذا كان لا بد من المناقشة فليناقش بعد ذلك. وكنا مدركين أن مثل هذا المفهوم ثقيل بعض الشيء على الأعضاء، وقد يحد من شعورهم بالحرية. لكن كان لابد من الموازنة بين الحسنات والسيئات. نحن لو رجَّحنا كفة النقاش قبل التنفيذ لكنا غير قادرين على التحرك الفوري والمنظم والموحد. وأي خطأ ينجم عن اتخاذ قرار أو عمل ما من دون أن يخضع مسبقاً لنقاش كانت القيادة تتلافاه في القرارات أو الخطوات التي تُتخذ بعد ذلك، أي كان هناك حرص من القيادة على الاستفادة من الخطأ.

وهذا يقودنا إلى مفهوم «النقد والنقد الذاتي» وكنا نرى ان هذا المفهوم هو الطريق إلى تصحيح أخطاء التنظيم وأخطاء القيادات. كنا نرى أن الخطأ أمر طبيعي وأن أي شخص أو أي تنظيم لابد أن يقع في أخطاء. وبحثْنا عن اسلوب لمعالجة الخطأ الذي نقع فيه. هل نناقش الأمر ليبرالياً؟ هل نتحدث إلى الناس عن الأخطاء؟ ووصلنا إلى مفهوم «النقد والنقد الذاتي» بحيث تقوم «الحركة» من وقت إلى آخر بتقييم المراحل السابقة فإذا اكتشفت خطأ أو أخطاء حدثت تقوم بعملية نقد. والذي كان يحدث هو أن كل اجتماع حزبي كان ينتهي بالنقد والنقد الذاتي حيث يقف العضو أو المسؤول ويسجل الأخطاء التي وقع فيها. وتلك كانت طريقة مثالية على طريق التقدم.

ومفهوم «النقد والنقد الذاتي» اكتسبناه من خلال مطالعاتنا للمفاهيم اللينينية

التنظيمية. وهو وبقية المفاهيم التي اتسمت بها «الحركة» واعتمدتها كانت عبارة عن مبادئ تنظيمية. والفرق كبير بين النظام الداخلي الذي لم يكن معمولاً به في الحركة، وبين المبادئ التنظيمية التي كان معمولاً بها.

نأتي إلى مسألة الانتخابات. كنا نرى أن قيادة «الحركة» تأخذ شرعيتها من نجاحها ومن قدرتها على الاستمرار في العمل ولا تأخذها من عملية انتخابية تقوم بها القاعدة. وإلى ذلك هنالك العنصر الأمني لأنه في العملية الانتخابية تصبح كوادر «الحركة» وقياداتها معروفة. وفي مسألة الانتخابات اعتمدْنا الخط المضاد للمفهوم اللينيني. لماذا؟ لنفترض أننا نريد تحديد قيادة من نوع قيادة لبنان أو قيادة سورية أو غيرهما مثلاً. من هو القادر على تحديد مثل هذه القيادة؟ كان رأينا أن القيادة المركزية هي الأقدر من القاعدة الحزبية على ذلك، لأن القاعدة الحزبية يطرأ عليها هبوط وصعود أما القيادة المركزية فثابتة لأنها القيادة المؤسسة. وهذه القيادة تستطيع أن تراقب كوادر «الحركة» تنقل منها إلى الصف القيادي الأول أي عنصر صاعد. وقد حدث ذلك. اتسع الاطار المؤسس بحيث شمل عناصر قيادية في مستوى الصف الأول. ثم أنشأنا «المؤسسة القيادية الموسَّعة» التي تضم الهيئة القيادية التأسيسية الأولى والعناصر التي نشعر أن التجربة صعَّدت أوضاعها القيادية إلى مستوى الصف القيادي الأول.

وهذه الخصوصية تميزت بها البنية التنظيمية لـ» حركة القوميين العرب». لم تكن القاعدة تساهم بشكل مباشر، بمعنى أنها لم تأت وتفرض عضواً ما أو أعضاء معيَّنين إنما ساهمت بشكل غير مباشر من خلال الإعراب عن رضاها أو عدم رضاها عن الوضع القيادي. وفي ضوء الانتقادات التي توجهها القاعدة أو الرضى تواصل القيادة مسيرتها.

*** ولكن اعتماد مبدأ الانتخاب ربما ساعد على فرز قيادات جديدة ومتطورة. ثم ألاَّ تعتقد أنكم لو أخذتم بمبدأ الانتخابات لتفاديتم حدوث الحركات الانقسامية. أو على الأقل ألا ترى أن عدم الأخذ بمبدأ الانتخابات كان سبباً غير معلَن للانقسامات التي حدثت داخل الحركة. المسألة في أي حال خاضعة للمناقشة.**

- الملاحظة التي تبديها ذات شقين. الشق الأول لا نقاش فيه لأننا عملنا به. وأقصد أن للقاعدة الحق في ممارسة عملية الانتخاب، ولها القدرة في تحديد القيادات الكفؤة والمتجددة. لكن الذي حدث هو أننا بالغْنا بالنسبة إلى الجانب المركزي فجاء على حساب الجانب الديمقراطي. وبعد ذلك بدأنا نعمل على أساس أن القيادة المركزية يمكن أن تمارس دورها من دون إلغاء حق القاعدة في تحديد القيادات وابداء رأيها بين الحين والآخر في القيادات.

أما الشق الآخر من الملاحظة المتعلق بالانقسامات فرأيي أن الموضوع أشد تعقيداً وأن الانتخابات لا تشكل حصانة لمنع حدوث الصراعات والتجنحات والانشقاقات. وهنالك أحزاب كثيرة كانت تمارس لعبة الانتخابات والديمقراطية ومع ذلك عاشت صراعات وانشقاقات مِثلها في ذلك مِثل «حركة القوميين العرب» التي لم تعتمد مبدأ الانتخابات. «حزب البعث» شهد صراعات وانشقاقات. والأحزاب الشيوعية أيضاً. وفي تقديري أن مهمتنا خلال النقاش هي وضع الدروس النظرية أمام الجيل الصاعد لكي يستفيد منها حتى لا تبقى «الحركة» الوطنية متشققة.

*** أعتقد أنه آن الأوان للحديث بالكثير من التفصيل عن ظاهرة الانقسامات والانشقاقات داخل «حركة القوميين العرب». ويمكن التطرق إلى الظاهرة في جلسة مقبلة بعد أن نكون أحطنا بمسائل أخرى تتعلق بالحركة ومنها: كيف انتشرت «الحركة» وفي أي الدول العربية كان انتشارها واسعاً، وكيف أمكنها استقطاب الناس في دولة مثل مصر؟**

- عندما توزعت النواة المؤسِّسة لـ« حركة القوميين العرب» لم يكن في تصورنا أننا سنصبح تنظيماً. ولم يكن توزُّعنا مخطَّطاً لأن كل واحد منا في الواقع عاد إلى بلده: أنا ووديع حداد ذهبنا إلى الأردن. أحمد الخطيب توجه إلى الكويت. وهاني الهندي ذهب إلى سورية. ومن العام 1952 حتى العام 1955 بقي نشاطنا محصوراً

في هذه الأقطار الأربعة. وفي هذه الفترة بدأت الجماهير تلمس أن تنظيماً سياسياً جديداً، أو بالأحرى فصيلاً آخر من فصائل التحرر الوطني بدأ يثبت وجوده.

وفي العام 1955 امتد نشاطنا ليشمل ساحة مصر. وعندما نقول ساحة مصر يتبادر إلى الذهن أن نشاطنا امتد إلى الجماهير المصرية. لكن الواقع هو أن النشاط انحصر في التجمع الطلابي في مصر بالذات.

كيف حدث ذلك؟

في تلك الفترة قام تنظيمنا الطلابي في الجامعة الأميركية في بيروت بتظاهرة ضد حلف بغداد. وردَّت ادارة الجامعة فطردت عدداً من الطلاب أعضاء التنظيم. وفي تلك الفترة كان جمال عبدالناصر الزعيم السياسي الأول الذي يقود بحماسة المعركة ضد الأحلاف ومنها حلف بغداد. وأبدت الحكومة المصرية استعدادها لاستقبال الطلاب المطرودين وإلحاقهم بجامعاتها. وذهب عدد من رفاقنا والتحقوا بجامعة القاهرة. وكانوا من العناصر الفعالة والنشيطة لأنهم بعد فترة تمكنوا من إنشاء تنظيم طلابي في مصر استقطب عدداً من الطلاب العرب بمن فيهم بعض الطلاب المصريين.

كيف نما هذا الفرع وما هو الحجم الذي وصل اليه وكيف أمكنه العمل في ظل المناخ السياسي الذي يمنع النشاط الحزبي، وهل كان عبدالناصر يعرف بأمر النظيم أم لا؟ هذه أمور يمكن التحدث حولها عندما نتحدث عن علاقتنا عموماً مع مصر وجمال عبدالناصر. المهم أن نشاطنا امتد في العام 1955 ليشمل الساحة المصرية. وقبل ذلك انتقل عنصر أساسي من عناصرنا - أصبح بعد ذلك خارج التنظيم - إلى العراق وبدأنا من خلاله نشاطنا هناك، ثم اتسعت دائرة نشاطنا في العراق عن طريق باسل الكبيسي (الذي استشهد بعد ذلك في باريس) ثم عن طريق سلام أحمد. وعلى رغم امتداد دائرة نشاطنا بحيث أصبحت عام 1956 تشمل ستة أقطار، إلاَّ أن الحجم الأساسي بقي لساحتين فقط هما الساحة اللبنانية والساحة الأردنية. وأتذكَّر أنه في منتصف العام 1959 وكنت خارج الأردن استمراراً لفترة اختفاء، جاءنا تقرير من القيادة الطلابية في مصر يفيد أن هنالك مجموعة من الشباب العرب بعضهم من اليمن الشمالي وبعضهم الآخر من اليمن

الجنوبي تخرَّجوا، وهنالك أفراد سودانيون وليبيون وبحرانيون، ولا تعرف القيادة ما المطلوب منهم لأنهم سيعودون كل إلى بلده، وإن كانت أبلغَتْهم أنه مادام ليس للحركة فروع في أقطارهم فإن عليهم العودة على أن يكون هنالك اتصال مستمر بهم. وناقشنا التقرير فوجدنا أنها فرصة وأنه لا يجوز أن يقال لهؤلاء الشبان اذهبوا وسنتصل بكم. وجدناها فرصة بمعنى أنه يمكن عن طريق هؤلاء تأسيس فروع في دولهم. وطلبنا من قيادتنا الطلابية في مصر ابلاغ هؤلاء الشبان الاستعداد لدورة سياسية سنعقدها لهم في دمشق. وكانت الدورة سرية واستغرقت اسبوعاً كاملاً شرحنا خلاله للمتخرجين العائدين إلى أقطارهم المفاهيم السياسية لـ«حركة القوميين العرب» والمفاهيم التنظيمية ووسائل الاتصال بالجماهير. وفي نهاية الاسبوع ودعناهم وحمَّلناهم مسؤولية تاريخية... مسؤولية إنشاء فروع لـ«حركة القوميين العرب» كل في بلده.

ومن هنا ان العام 1959 عام خاص بالنسبة إلى امتداد «الحركة» حيث أننا أوجدنا نواة في اليمن الجنوبي حققت بعد ذلك الثورة المسلحة، أو على الأقل ساهمت مساهمة كبيرة في هذه الثورة. كذلك أوجدنا نواة في اليمن الشمالي وأخرى في ليبيا ونواة في السودان وأخرى في البحرين. وسارت التجربة بتفاؤل وذلك بسبب نوعية القيادات بالإضافة إلى الظروف الموضوعية. ولقد ساعد العامِل الذاتي والعامِل الموضوعي على أن تنمو بشكل جيد في اليمنين الجنوبي والشمالي، وان يصبح لنا فرع في ليبيا ووجود في البحرين. أما في السودان فلم يصل وجودنا إلى مستوى فرع وإنما بقي محصوراً في النواة التأسيسية برغم جهود بذلها أعضاء تلك النواة. وحاولْنا من خلال بعض الطلاب المغاربة الذين يدرسون في جامعة دمشق مد نشاط «الحركة» إلى دول المغرب، لكن محاولتنا لم تنجح حتى في الوصول إلى إنشاء نواة تأسيسية، ولم نهتم بإنشاء فرع في الجزائر لأن الثورة كانت مشتعلة هناك، وكان جهدنا مركزاً على ضرورة المساهمة بدعم هذه الثورة وليس ايجاد تنظيم على هامشها أو بديل لها.

من حيث النمو العددي استمرت «الحركة» منذ مرحلة التأسيس عام 1952 حتى قيام الوحدة عام 1958 بين مصر وسورية عبارة عن تنظيم طلائعي. ومع

المرحلة الثانية تحولت «الحركة» إلى تنظيم جماهيري حيث أنه حدث انسجام تام بين استراتيجيتها واستراتيجية عبدالناصر. والذي ساعد على تعبئة الجماهير العربية - في دول المشرق بالذات - هو أن الجماهير في أكثريتها ناصرية، وعبدالناصر لا حزب له لكي يستوعب هذه الجماهير ويعبئها. وبعد الانفصال أصبح عدد أفراد «الحركة» بالآلاف.

الفصل السادس

محاولات إنشاء فروع
في المشرق والمغرب

*** ما نوع منابركم في كل بلد ما دمتم لستم حزباً له مقر ومعترفاً به؟ هل كان المنبر عبارة عن صحف أو أندية، أو عيادات، أو جمعيات؟**

- في الواقع إننا نشأنا كتنظيم فلسطيني بأفق عربي. ونصف العناصر الأساسية في النواة المؤسِّسة كانت فلسطينية، والنسبة نفسها تنطبق على الكوادر. وإلى ذلك إن أول تعاطينا السياسي كان مع القضية الفلسطينية. وأول نشرة دورية صدرت عنا كان اسمها «الثأر» وتتضمن كتابات عن اسرائيل والخطر الصهيوني وأسلوب مواجهة «الحركة» الصهيونية والمشاريع التي كانت تحاك لطمس القضية الفلسطينية وانهائها. وكنا نذيِّل النشرة بتوقيع «هيئة مقاومة الصلح مع اسرائيل».

وعند تأسيسنا «الحركة» كان في ذهننا الاستمرار في التصدي لإسرائيل عن طريق العمل الثوري والكفاح المسلح. وعندما قررنا إيجاد فرع لنا في الأردن فكَّرنا في موضوع العنف المسلح ضد اسرائيل بحيث تتسلل مجموعات إلى داخل إسرائيل وتقوم بعمليات هناك. ولقد حاولْنا ذلك في أعوام 1953 و1955 خلال فترة العمل الفدائي في غزة، والذي كان من أسباب العدوان الثلاثي على مصر عام 1956. وقامت عناصر بتنفيذ بعض العمليات. لكن قيادة غلوب باشا للجيش الأردني آنذاك تصدت لنا فشعرْنا أن الأمر ليس سهلاً. ومن هنا تحولنا إلى خوض معركة سياسية ضد النظام في الأردن. وفي تلك الفترة أطلقنا الشعار

الشهير، وهو أن الطريق إلى تل أبيب يمر عبر عمان ودمشق وبيروت..الخ.. أطلقنا الشعار بعدما أدركْنا أن الأنظمة الردعية تمنعنا من التصدي لإسرائيل، وما دام الأمر كذلك فلا بد من التصدي لهذه الأنظمة. لقد انطلقنا على أساس فلسطيني، لكننا بعد فترة وجدْنا أنفسنا مندمجين في حركة التحرر الوطني الأردني، وحركة التحرر الوطني اللبناني، وأصبح أعضاء «الحركة» الفلسطينيون جزءاً من تنظيم «الحركة» في الأردن، وجزءاً من تنظيمها في لبنان وسورية. وواصلْنا العمل على أساس أن الطريق إلى تحرير فلسطين يتم عن طريق المعارك التحررية والوحدوية التي سنخوضها ضد الأنظمة العربية الرجعية. واستمر الوضع على هذه الحال إلى أن طرح عبدالناصر عام 1959 موضوع الكيان الفلسطيني.

بعد هذا الطرح حدث تحوُّل أساسي في مسيرتنا. وشجعتنا محاولة عبدالناصر لإحياء الوجود الفلسطيني، أو الهوية الفلسطينية، على القيام بعملية فرز الأعضاء في «حركة القوميين العرب». ولم نجعل من هؤلاء «فرعاً فلسطينياً» للحركة وإنما أنشأنا لجنة سميناها «لجنة فلسطين»، وكانت بالفعل نواة «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» فيما بعد.

تبقى مسألة وسائل التعبير، أو المنابر التي تشير اليها. كانت منابرنا متنوعة. ففي الأردن عبَّرنا عن مبادئنا وأفكارنا من خلال صحيفة سميناها **الرأي**، تصدت بعنف للمعاهدة البريطانية وللنفوذ البريطاني في الأردن ولغلوب باشا. ولم تكن **الرأي** هي المنبر الوحيد. كانت هنالك أيضاً بعض المؤسسات الجماهيرية المسيَّسة، ظاهرها العمل الخيري والاجتماعي وباطنها عمل سياسي جدي وتثقيف قومي وثوري للجماهير. وفي تلك الفترة من 1954 إلى 1956 كانت الساحة الأردنية حية وتربة طيبة لزرع الأفكار وممارسة النضال. فهناك مشاريع الأحلاف. وهنالك مسألة وجود غلوب باشا على رأس الجيش. وهناك مشروع تمبلر. وأمكننا عبْر صحيفة **الرأي** وعبْر تحرك الجماهير وتمردها من احباط مشروع تمبلر ثم طرد غلوب باشا. وبعد بضعة أشهر أُغلقت **الرأي** وتركتُ أنا الأردن إلى سورية. وهناك واصلتُ مع عدد من الرفاق اصدار **الرأي** وتهريبها إلى الأردن. وبكثير من التواضع يمكن القول إن **الرأي** استقطبت قطاعاً جماهيرياً عريضاً في الأردن،

ولعبت دوراً أساسياً في بلورة الهوية السياسية لـ«حركة القوميين العرب» في الساحة الأردنية. وقبل أن نصدر **الرأي** في سورية لم يكن للحركة منبر تعبر من خلاله عن أفكارها. وقبل ذلك كان التعبير محدوداً، ويتم على مستوى الوجود التنظيمي. وفي تلك الفترة كان الرفاق في سورية بضع عشرات من المنتظمين في خلايا يعقدون اجتماعات ويتثقفون عقائدياً. بعد اصدار **الرأي** في سورية أصبح للحركة منبر. وكان منبراً فعالاً. وقد أصدرنا **الرأي** بترخيص سوري وبإسم أحد الرفاق السوريين ومع إصدار **الرأي** في سورية أصبح لنا وجود سياسي علني. وفي تلك الفترة ومن خلال **الرأي**، التي أصبحت تُقرأ باهتمام في أوساط طلاب جامعة دمشق، تم التعرف على عناصر أصبحت بعد ذلك عناصر قيادية. وأذكر على سبيل المثال الشهيد غسان كنفاني، وبلال الحسن.

*** لماذا لم تُصدروا «الرأي»، أو أي صحيفة أخرى، في بيروت بدلاً من دمشق، ولماذا اختيار «الرأي» كتسمية للصحيفة، وهل أن هذا الاسم يعني شيئاً بالنسبة اليكم؟**

- أذكر أن **الرأي** كانت واحدة من بضع تسميات. وبعد عرض التسميات حظيت تسمية «**الرأي** بما يشبه الإجماع.

أما لماذا لم نُصدر صحيفة في تلك الفترة في بيروت، فلإقتناع منا بأن الحاجة إلى اصدار صحيفة في الساحة الأردنية كانت ضرورية من جهة لتثقيف القطاع العريض من الجماهير وتنويره، ولأن طبيعة العمل السياسي في لبنان - وفي تلك الفترة بالذات - كانت تسمح بتحرك علني، من جهة أخرى. بالإضافة إلى أن النواة القيادية للحركة تركت لبنان وتوجَّه أعضاؤها إلى بلادهم.

وبالمناسبة فإن منابرنا تعددت في لبنان. بدأنا باصدار نشرة «الثأر» وزرعْنا رفاقاً في مؤسسات كثيرة. ثم أنشأنا «النادي الثقافي العربي». ولم تمض فترة طويلة حتى أصبحنا قوة سياسية في لبنان يأتي ذكْرُها عند تحديد القوى السياسية. وساعدتنا العلاقة الطيبة مع الجمهورية العربية المتحدة وعبدالحميد السراج على ممارسة دور أساسي في ثورة 1958 في لبنان. وأمكننا استقطاب قطاع عريض من الجماهير في

جنوب لبنان. وخاض أحد الرفاق وهو محمد الزيات الانتخابات. وهو وإن لم يتمكن من الفوز - وكنا ندرك ذلك سلفاً - لكنه حصل على بضعة آلاف من الأصوات هزت إقطاع آل الخليل.

وفي العراق بقينا مجرد تنظيم لا تأثير له حتى عام 1958، وليس له صحيفة تُعبِّر عن أفكاره واتجاهاته. بعد 1958 أصبحنا قوة أساسية. وفي مرحلة من عهد عبدالسلام عارف أصدرت «الحركة» نشرات وأدبيات، واتسعت دائرة استقطابها للجماهير.

وبسبب وجود الدكتور أحمد الخطيب في الكويت أمكن لـ«الحركة» أن تنشط وتحقق وجوداً سياسياً مهماً شبيهاً إلى حد ما بوجودها في الأردن. ولم يقتصر ذلك على الكويت وإنما شمل الخليج.

وقد وهب الدكتور أحمد الخطيب نفسه للعمل من أجل «الحركة». إستحصل في البداية على ترخيص لإنشاء ناد. ومن خلال النادي حصل على ترخيص لإصدار صحيفة قادت حملة عنيفة ضد الظلم والعشائرية. وتجاوبت الجماهير مع ما يكتب في الصحيفة، ووجد المسؤولون في الكويت أنفسهم يتصدون للصحيفة فيعطلونها أحياناً ثم تستأنف الصدور.

وأفادنا الوجود السياسي الذي حققته «الحركة» في الكويت في تأمين وجود تنظيمي لنا في مناطق أخرى في الخليج. والثورة القائمة الآن في عُمان تضم عناصر قيادية أساسية انتظمت سابقاً في «الحركة» من خلال الوجود الأساسي الذي حققته في الكويت.

ولم يصل جهد «الحركة» إلى مستوى تأسيس فرع في السعودية وإن كانت ساهمت في بعض التحركات التي شهدتها المملكة في الخمسينات، وبالذات التحركات العمالية التي كانت الظهران ساحة لها. وتمثلت المساهمة ببيانات ومنشورات وتعبئة.

ولم تستطع «الحركة» تجنيد عدد كبير من السعوديين والوصول إلى مستوى التنظيم الجماهيري. وقد تصورت السلطة السعودية في حينه أننا قوة لكن الحقيقة أننا لم نكن كذلك.

ولقد حاول رفاقنا من طلاب الجامعة السورية تجنيد عدد من الطلاب المغاربة والتونسيين على أمل أن ينشئوا فروعاً بعد عودتهم إلى بلادهم. لكننا لم ننجح في تجنيد العدد الكافي. ونتيجة لإندلاع الثورة في الجزائر، فإن همَّنا كان مساندة الثورة وليس إنشاء فرع لـ«حركة القوميين العرب» في الجزائر. وقد لعبنا ونحن في المشرق دوراً أساسياً في مساندة الثورة الجزائرية جماهيرياً وإعلامياً وسياسياً.

أما وجودنا في اليمن فإن الحديث عنه مرتبط بالحديث حول وجودنا في مصر والعلاقة التي نشأت بين «الحركة» وبين جمال عبدالناصر. وفي أي حال ان انجازنا الكبير كان في اليمن.

*** ما هي البنية الطبقية لـ«حركة القوميين العرب»؟ وهل ان القيادة المؤسِّسة حرصت على أن تتميز البنية الطبقية، أم أنها تركت ذلك للتفاعلات؟**

- الواقع أنه كان لـ«الحركة» بنية طبقية خاصة. في مرحلة التأسيس كان القطاع الطلابي هو نقطة الانطلاق بالنسبة الينا في بعض الاقطار، لكن توجُّهنا نحو الجماهير كان مسألة لا تغيب عن أذهاننا. ومن هنا ان نسبة عالية من قواعدنا هي من الطبقات المسحوقة. وفي الساحة الفلسطينية كان سكان المخيمات يشكلون قاعدة جماهيرية عريضة لنا. وهذا في أي حال، نوع من التناقض في بنية «الحركة» حيث أن قواعدها من الطبقات المسحوقة، بينما كوادرها ورموزها الأساسية من المثقفين والقطاع الطلابي. وفي الوقت نفسه كانت هنالك استثناءات.. والساحة الأردنية من الاستثناءات، حيث كانت تقف إلى جانب «الحركة» مجموعات تنتمي إلى البورجوازية الكبيرة. وهذا ناتج عن هوية الحكم الأردني وهيمنة الانكليز وغلوب باشا. وهنالك أشخاص من البورجوازية الأردنية أصبحوا وزراء في عهد الملك حسين. كذلك هنالك وجوه في لبنان مرت في «الحركة» ثم انصرفت بعد ذلك إلى الاهتمام بمصالحها الخاصة. وهذه الشريحة الطبقية من بنية «الحركة» لم تتابع المسيرة، وتساقطت عناصر تنتمي اليها على الطريق مرحلة بعد مرحلة، وبعض هذه العناصر كان من كوادر «الحركة».

وفي تلك الفترة لم تكن «الحركة» تملك دليلاً نظرياً واضحاً ونظرية ثورية تهتدي بها. ولذا كان نمونا غير مبرمج وغير مخطَّط. ومرت فترة اختلطت نوعية البنية بحيث كان هنالك العنصر المسحوق والعنصر البورجوازي الكبير والمتوسط والصغير. لكن القطاع الجماهيري المسحوق هو في النهاية الذي مكّن «الحركة» من البقاء في استمرار في المعسكر الوطني، وهو الذي جعلها تتطور نحو اليسار خطوة بعد خطوة. وبعد تساقُط العناصر البورجوازية وتحوُّل بعضها إلى صف الانظمة تبيَّن أن البنية الطبقية لـ«الحركة» تتمثل في القاعدة الجماهيرية العريضة من المسحوقين.

*** ان القاء نظرة على المؤتمرات التي عقدَتْها «حركة القوميين العرب» يفيد في شرح عملية التطور داخل «الحركة» فكراً ومنهجاً. ما هي المؤتمرات التي عقدتها «الحركة» والاجواء التي سادت في انعقادها؟**

- قبل الحديث عن المؤتمرات يجدر بنا التطرق إلى مسيرة «الحركة» من حيث المراحل الأساسية، خصوصاً ان كل مرحلة كانت تتطلب انعقاد مؤتمر أو عقد لقاء قيادي موسَّع لمواجهتها.

هنالك مرحلة التأسيس وقد تحدثتُ في البداية عنها. بعد مرحلة التأسيس تأتي مرحلة في منتهى الأهمية وهي المرحلة التي تمتد من العام 1953 حتى قيام الوحدة بين مصر وسورية في 22 شباط 1958. ففي هذه المرحلة كرَّسنا أنفسنا كفصيل رئيسي من فصائل «الحركة» الوطنية في العالم العربي، وأبرزها «حزب البعث» والأحزاب الشيوعية. وعلى رغم أننا بدأنا بعد «البعث» ببضع سنوات وبعد الأحزاب الشيوعية بسنين كثيرة، إلاّ أننا استطعنا في فترة زمنية قصيرة نسبياً ان نصبح في بعض الأقطار الفصيل الثالث من حيث الحجم والفعالية.

ولقد تصدت «حركة القوميين العرب» مع القوى الوطنية الأخرى لمخططات الامبريالية من محاولة فرض حلف بغداد إلى محاولة ضرب «الحركة» الناصرية، مروراً بالعدوان الثلاثي على السويس ومشروع ايزنهاور.

وكانت الهجمة الامبريالية في تلك الفترة شرسة هدفها ربط المنطقة بأحلاف مهما تكلف الأمر. وبعدما تم إفشال حلف بغداد بدأت الامبريالية تجدد هجمتها لربط المنطقة بمشروع ايزنهاور.

عملياً ان القيادة الرئيسية التي تصدت لحلف بغداد ولكل المؤامرات الامبريالية كانت قيادة عبدالناصر، ونحن وبقية الفصائل شاركْنا في عملية التصدي.

بعد قيام الوحدة في 22 شباط (فبراير) 1958 دخلت «حركة القوميين العرب» مرحلة جديدة وطرحْنا على أنفسنا سؤالاً أساسياً وهو: لماذا نبقى بعدما تبلورت قيادة عبدالناصر وأُفقها التحرري، وبعدما تبنى عبدالناصر إلى درجة التنفيذ الشعارات التي رفعتْها «الحركة»؟. وخرجنا بجواب هو أن القيادة الحقيقية للجماهير هي قيادة عبدالناصر التي يتفق خطنا السياسي مع خطها. واستوقفنا أمر مهم وهو أن الناصرية من دون تنظيم بإستثناء الساحة المصرية وما دام الأمر كذلك فكيف ستتمكن الجماهير العربية من تحقيق الشعارات التي يرفعها عبدالناصر، وهل يمكن للجماهير أن تصبح قوة منظَّمة لمجرد أن تستمع إلى خطب عبدالناصر واذاعاته؟

وفي ضوء هذا المبرر أو الحيثية اتخذنا قراراً بضرورة استمرار التنظيم على أن نعمل ضمن الاستراتيجية الناصرية لتحقيق أهداف ما سميناه في تلك الفترة بـ«القيادة الرسمية للثورة العربية». وخضنا بالفعل معارك سياسية كانت تحددها القيادة الناصرية. وعلى سبيل المثال لا الحصر خُضنا معركة شعار محاربة الانظمة الرجعية في المنطقة الذي رفعه عبدالناصر.

واستمرت مرحلة عمل «الحركة» من خلال المجرى الناصري من 22 شباط 1958 حتى حزيران (يونيو) 1967. إلاَّ أنه لا بد من وقفة حيال المرحلة التي سبقت حدوث الانفصال.

كانت «الحركة» وقتها تشكِّل ثُقلاً في سورية، وهذا ساعدها على أن تتلمس عن قرب الثغرات في التجربة الناصرية. لكننا لم نسمح لانفسنا على رغم ذلك بالخروج عن المجرى الناصري. لكن ظهر في تلك الفترة اتجاه داخل «الحركة» يرى ضرورة التنبيه لهذه الثغرات عن طريق الكتابة عنها في صحيفة «الحركة» في بيروت (أي

«الحرية») أو مخاطبة الجماهير تلقائياً، وظهر في المقابل اتجاه يرى أن مثل هذا الأمر سيجعل «الحركة» تقف في المعسكر المضاد للناصرية، وسيستغل هذا الموقف من جانب القوى المعادية للوحدة التي كانت ناشطة لضرب الوحدة. ورجحت كفة هذا الاتجاه الذي يرى ضرورة البقاء ضمن المجرى الناصري، وأنه اذا كان لا بد من التنبيه فليتم ذلك ضمن الاطار المسؤول.

ويهمني أن أسجل هنا أن انتقاداتنا في الفترة التي تلت رجحان كفة الفريق الذي رأى أنه لا مفر من البقاء ضمن المجرى الناصري، كانت من منطلق ديمقراطي وليس من منطلق ماركسي - لينيني. واذا جاز الوصف فإنه كان من منطلق ليبرالي. وتركَّز النقد على قضايا معيَّنة. قلنا إنه من غير المعقول ابقاء الجماهير في وضع غير فعال، وطالبْنا بتشجيع المبادرات الجماهيرية وحرية الكلمة بالنسبة إلى القوى الوطنية. ولم ننتقد عبدالناصر لأنه لا يتقدم بشكل أسرع في مسألة الاجراءات الاشتراكية، أو لأنه لا يقبِض بزمام من حديد ويخنق التحركات البورجوازية والرجعية. ولو استعدنا أحداث تلك الفترة الآن لوجدنا أن الرأي الذي كان يجب أن يقال لعبدالناصر هو أن الاجراءات الاشتراكية يجب أن تكون أكثر جذرية، وان ديكتاتورية البروليتاريا يجب أن تضرب القوى البورجوازية والرجعية لكي تتابع المسيرة الاشتراكية طريقها بحيوية.

وبعدما حدث الانفصال استمرت «الحركة» ضمن المجرى الناصري، وكنا القوة المنظَّمة الوحيدة في سورية التي تبنت عبدالناصر وقيادته وطالبت بضرورة عودة الوحدة والنضال من أجل عودتها. أما القوى الأخرى وبالتحديد الحزب الشيوعي وجزء من «حزب البعث» فإنها وقفت إلى جانب الانفصال أو شاركت فيه.

والتصقنا أكثر بقيادة عبدالناصر لأن صورة ما حدث كانت متبلورة. وما حدث كان ردة رجعية تساندها الامبريالية.

الفصل السابع

الحركة وعبدالناصر
أثناء الوحدة وبعد الانفصال

*** ألا تعتقد أنه لو مارست «حركة القوميين العرب» دور المراقب لمسيرة الوحدة والمنبه لأخطائها لكانت أفادت أكثر من دور تعبئة الجماهير الذي مارسَتْه؟**
إن عبدالناصر لم يكن في حاجة إلى من يعبئ له الجماهير لأنه عبأها ما فيه الكفاية، لكنه كان في حاجة إلى من ينبه إلى الأخطاء بصدق حرصاً على استمرارية الوحدة. وفي الواقع ليس بالضرورة اعتبار من ينبه إلى ممارسات سلبية من شأنها الاساءة إلى الوحدة. انه يقف في صف القوى المضادة للوحدة. ومن هنا يمكن تحميلكم جزءاً من مسؤولية ما حدث، على أساس أنكم لمستم الخطأ ومع ذلك إستمر موقفكم على ما كان، والتستر على الخطأ.
هل تُقِرّ هذا التحليل؟

- في هذه المسألة لا بد من توضيح بعض الأمور. انني اعترف بأننا في السنة الأولى كنا تنظيماً راديكالياً وطنياً لا يمتلك نظرية شاملة تمكِّنه من اتخاذ مبادرة بتحديد أمر ما وممارسة دور فعال. لقد كنا عام 1958 جزءاً من حركة الجماهير الموالية لقيادة عبدالناصر التي ترفض توجيه كلمة نقد اليه. ونحن كنوع من التقدير المثالي لعبدالناصر ولأننا نعيش واقع الجماهير في تلك الفترة لم نتخذ موقفاً يتجاوز موقف الجماهير. لكننا مع بداية عام 1959 وبعدما تلمَّسَنا عدم قدرة الناصرية

على الصمود أمام عبدالكريم قاسم في العراق وجدنا أنه لا بد من ممارسة رقابة جماهيرية، واصطدمنا بمحظور أساسي وهو أن ممارسة هذا الدور سيجعلنا نصبح موضوعياً قوة مضادة للمجرى الناصري، يضاف إلى ذلك أننا لو مارسْنا في حينه هذا الدور فإن الممارسة لن تكون عملية.

وبعد الانفصال بدأت البيانات التي أصدرَتها «الحركة» تشير إلى الأخطاء التي حدثت في عهد الوحدة. وقلنا في هذه البيانات إنه من المفروض، ونحن نناضل من أجل اعادة الوحدة، أن تكون هنالك استفادة من الأخطاء.

*** ما الفائدة إنكم لم تتحدثوا عن الأخطاء إلاَّ بعد أن سقطت الوحدة؟ ان علاقتكم بعبدالناصر كانت جيدة وكان في استطاعتكم أن تحدِّثوه بصدق عما يجري في دولة الوحدة. وكان من شأن حديثكم هذا قطع الطريق - ربما - على المحاولات التي كانت تُدبَّر لضرب الوحدة.**

- كنا كتنظيم نرى الأخطاء وكنا نخشى من طرحها جماهيرياً حتى لا نجد أنفسنا نفعل الشيء نفسه الذي فعله الحزب الشيوعي السوري وقطاعات من «حزب البعث».

وقبل الانفصال لم تكن علاقتنا بعبدالناصر بتلك الجودة التي تفترضها، ولكنها أصبحت بعد الانفصال ممتازة.

وقبل الانفصال كانت علاقة «الحركة» مع عبدالحكيم عامر وعبدالحميد السراج. وأعتقد أن الذي جعل العلاقة تتوثق بين «الحركة» وعبدالناصر بعد الانفصال هو أننا لم نكن من ضمن المجموعات التي ينطبق عليها المثل الشعبي «عندما تقع البقرة يكثر ذابحوها». وعلى رغم تواضُع حجمنا، فإننا صمدنا في خط الوحدة، وزادت حماستنا للناصرية ولم نتخلَّ عن دعوتنا إلى ضرورة عودة الوحدة. وفي الوقت نفسه أبدينا آراء صريحة وجريئة في موضوع الوحدة. وبعض هذه الآراء قلناه لعبدالناصر نفسه في أول لقاء للحركة به، ولم أكن حاضراً. وفي هذا اللقاء شعر عبدالناصر براحة نفسية بعدما لمس أنه ما زال على الساحة العربية

من يتمسك بولائه للوحدة.

وحتى انتقاداتنا لتجربة الوحدة التي بدأنا نطرحها بعد الانفصال لم تكن موجَّهة إلى الاجراءات الاشتراكية، أو ديكتاتورية ثورية البروليتاريا، وإنما انحصرت في دور الجماهير وحركتها.

وبقينا على هذا الموقف إلى أن سقط الانفصال في سورية، وفشل نظام عبدالكريم قاسم الذي كان يتصدى للناصرية ويتصور أنه يمكن أن يكون البديل لها.

بعد ذلك بدأ التيار الناصري عملية مد جديدة. وساعد على ذلك شعور الناس بأنه ليس هنالك نظام آخر في قدرته أن يشكِّل حالة أرقى من النظام الناصري.

وبعدما فشلت محادثات الوحدة الثلاثية بين مصر والعراق وسورية، طرح عبدالناصر عام 1973 شعار «الحركة» العربية الواحدة. وهذا الشعار تسبَّب في نشوء خلافات داخل «حركة القوميين العرب» حيث ان اتجاهاً رأى أنه حيال ما طرحه عبدالناصر يجب حل «الحركة» ودمجها في «الحركة» العربية الواحدة التي سيقودها عبدالناصر. وقابله اتجاه آخر يعارض فكرة الحل ويرى أن الأنسب هو أن نتعاطى مع شعار «الحركة» العربية الواحدة ولا نحل أنفسنا إلاَّ عندما نجد أننا قطعنا شوطاً طويلاً في طريق البديل. والمقصود بالبديل هو «الحركة» العربية الواحدة. وعلى رغم وجود اتجاهين، فإن «حركة القوميين العرب» أصبحت في موقع أقرب إلى القيادة الناصرية.

وانتهى حوارنا لهذه المسألة في شباط/ فبراير 1965 وحسم مؤتمر لـ«الحركة» الموضوع كالآتي: تلتحم «حركة القوميين العرب» بالقيادة الناصرية من دون أن تحل نفسها على أن يكون عندنا الاستعداد للحل بعد أن تتطور علاقتنا بعبدالناصر وبعد أن نستشف بناء «الحركة» العربية البديلة. وقد طرحْنا الفكرة بصراحة على عبدالناصر.

والذي حدث أن التجارب السريعة للحركة العربية الواحدة ومنها الاتحادات الاشتراكية لم تنجح، وظهرت سلبياتها بعد فترة قصيرة.

وقبل هزيمة حزيران/ يونيو 1967 سجَّلنا آخر موقف لنا من الناصرية. وفي ضوء ملاحظات لنا حول عدم الانسجام السائد في التيار الناصري تبلورت عندنا

وجهة نظر تتعلق ببلورة اليسار الناصري باعتقاد أن هذا اليسار هو الذي يمكن أن يشكِّل مستقبلاً أداة الثورة العربية. لقد كان التيار الناصري غير منسجم طبقياً وسياسياً وفكرياً ضمن هذا التيار فهنالك اليمين واليسار وهنالك البورجوازية، وفي المقابل الجماهير الكادحة.

واذاً فمن شباط 1958 حتى هزيمة 1967 استمرت «الحركة» ضمن المجرى الناصري، وإن كان حدث أنها في فترة تبدو قريبة جداً من هذا المجرى وفي فترة أخرى تبدو بعيدة بعض الشيء.

وبعد 1967 بدأت المرحلة الثالثة في علاقة «الحركة» بعبدالناصر والناصرية. وعندما نقول العلاقة بالناصرية نقصد أن «الحركة» بعد 1967 طرحت أموراً مختلفة تمام الاختلاف عن المسار الذي سارت فيه إبان المرحلة الثانية.

بعد 1967 حدثت نقلة نوعية بالنسبة إلى «حركة القوميين العرب» فيما يتعلق بعلاقتها بالناصرية. فقد كانت هزيمة حزيران بالشكل الذي حدثت فيه مفاجأة كبرى بالنسبة الينا. ووجدْنا أنفسنا أن تقديرنا وحبنا لعبدالناصر على الصعيد الشخصي يجب ألاَّ يحول دون معالجة ما حدث معالجة عملية. فليس من المعقول أن ينتهي نظام عبدالناصر الذي قاد حركة الجماهير العربية مدة اثنتي عشرة سنة إلى مثل هذا المصير اذا لم يكن هنالك خلل داخل النظام.

وفي ضوء ذلك طرحْنا بجرأة تحليلاً جذرياً لنظام عبدالناصر وطبيعة القوى المتحكمة في هذا النظام والتي لا تمثِّل الطبقة العاملة بقدر ما تمثِّل نظاماً بورجوازياً راديكالياً صغيراً. وأكدنا على أن الشعب هو الأساس وأنه من أجل تحقيق انتصار لا بد من حرب تحرير شعبية، ولا بد من تنظيم يقود حركة الجماهير ويتبنى برامج عسكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية متطابقة مع مصالح الجماهير المسحوقة وليس مع مصالح الطبقة الحاكمة في ذلك الوقت.

كذلك حدث تغيير في بنية «الحركة» لأنها حددت أنه – بالمنطق العلمي – ليس هنالك أنظمة مناهضة للامبريالية يمكنها أن تصمد اذا لم تكن قائمة على أساس النظرية الثورية بمعنى الماركسية – اللينينية. وكان دليل «الحركة» إلى ذلك كيف ان نظام سوكارنو أُسقط، وكذلك نظام نكروما، في حين أن نظام كاسترو لم يسقط

مثلاً. كما أن فيتنام الشمالية وكوريا الشمالية صمدتا صموداً مذهلاً.

بعد هذا التحديد أصبحت «حركة القوميين العرب» في مجرى آخر غير المجرى الناصري. ولقد شعرْنا بألم على صعيد شخصي وعاطفي لهذا الابتعاد عن عبدالناصر لكننا في الوقت نفسه شعرْنا بأننا وُلدنِا من جديد حيث عدنا إلى منطلقات «الحركة» قبل أن تسير في المجرى الناصري. عدنا إلى مفاهيم الجماهير والتنظيم والبندقية وحربَ التحرير الشعبية وحسم التناقض مع الأعداء عن طريق العنف.

*** هنالك مرحلة التفجر التي شهدَتْها «حركة القوميين العرب». هل كان هذا التفجر نتيجة طبيعية لعدم توافر المناخ الديمقراطي داخل الحركة؟**
وكيف حدثت الانقسامات بعد تصاعد التفجر، وهل حاولت قيادة «الحركة» تطويقها في شكل أو آخر؟

– في الحديث عن هذا الموضوع أشعر بمسؤولية تاريخية، لأن الموضوع يتناول رفاقاً آخرين. ويفرض عليَّ الواجب أن أقول الحقيقة.

في فترة التأسيس كان الانسجام مثالياً داخل الحركة. ولم يكن الوضع القيادي مثار جدل أو نقاش. وكان هنالك التفاف كامل حول الشعارات والمواقف السياسية التي تطرحها الحركة. وإستمر هذا الوضع طوال سنوات التأسيس، بل يمكن القول إنه إستمر حتى العام 1959، ذلك ان الفكرة التي طُرحت مع قيام الوحدة، وهي هل تبقى «الحركة» أم لا، حُسمت بشكل جماعي، وحدث التزام كامل من كل الرفاق بالنتيجة التي توصلّنا إليها.

المرة الاولى التي شعرتُ أن هنالك أموراً تتجاوز الفكرة والمناقشة ووجهة النظر القابلة للنقاش بدأت تُطرح داخل الحركة، كانت في العام 1959. وبدا أن هذه الأمور تعكسٍ أجواء جديدة لم نألفها.

حيال ذلك شكّلنا لجنة سميناها «اللجنة الفكرية» أو «لجنة التثقيف» على ما أعتقد. وأوكلت «الحركة» إلى الرفيق محسن ابراهيم مسؤولية اللجنة التي كان

معظم أعضائها من الرفاق اللبنانيين على أساس أن لبنان هو ملتقى الصراعات الفكرية والنظرية من جهة، ولأن رفاقنا خارج لبنان منهمكون بالعمل النضالي. ومثل هذه اللجنة تحتاج إلى شيء من التفرغ.

وطلبت القيادة من اللجنة إعداد برامج تثقيفية للقاعدة الحزبية ووضْع وثائق تطرح فيها فكر «حركة القوميين العرب».

وطلبت اللجنة أيضاً عقد اجتماع مع العناصر القيادية في «الحركة» لأن لديها موضوعات تريد أن تتحدث فيها. تم الاجتماع ووجدت القيادة نفسها أمام دراسة أعدتها اللجنة هي في الواقع عبارة عن عملية تقييم ومراجعة لبعض مواقف «الحركة» وبعض شعاراتنا. وعلى سبيل المثال إن «الحركة» كانت ترى أن كل يهودي هو صهيوني. ووقفت الدراسة أمام هذا الأمر وقالت ان ذلك ليس صحيحاً وانه يجب أن نميز بين اليهودية والصهيونية. وكانت «الحركة» تقول بالوحدة أياً كان الثمن وان أي وحدة بين قُطرين ستكون مفيدة. وجاء في الدراسة إن الوحدة بأي ثمن مسألة يجب أن تناقش وان الثمن رهن بتفاصيل هذه الوحدة. وجاء في الدراسة أيضاً إن شعار الثأر الذي ترفعه «الحركة» شعار غير سياسي والأفضل استبداله بتعبير آخر من نوع استرداد فلسطين أو تحرير فلسطين. وقالت الدراسة إن نظرية «الحركة» القائمة على أن الثورة سوف تمر بمرحلتين هما مرحلة التحرر السياسي ومرحلة التحرر الاقتصادي، نظرية غير صحيحة لأن المرحلتين مرتبطتان ومتشابكتان.

وتاريخياً، يجب أن اعترف بأن هذه الدراسة كانت محاولة جديدة وناضجة وجريئة، ومرد ذلك أن الرفاق الذين أعدوها ليسوا مسؤولين عن وضع الفكر الأساسي لـ«لحركة» وبالتالي كانوا أكثر جرأة على وقفة نقدية أمام شعارات «الحركة» ومواقفها السياسية الأساسية.

وشعرنا نحن الرفاق الذين شاركوا في التأسيس أنه يمكن مناقشة ما احتوته الدراسة موضوعاً بعد موضوع. لكننا في الوقت نفسه لاحْظنا ان الدراسة تقف فقط أمام الجوانب السلبية من دون ان تأخذ في الاعتبار «حركة القوميين العرب» بكل جوانبها.

ولقد أحدث النهج والاسلوب اللذان طُرحت فيهما مواضيع الدراسة جواً متوتراً داخل الاجتماع. وشعرنا كقيادة مسؤولة أنه من الضروري تجاوز مسألة النهج والأسلوب، من أجل رؤية واضحة للمواضيع المطروحة. ففي الدرجة الأولى يجب حسم مسألة سلامة أو عدم سلامة هذه الموضوعات. وبعد ذلك تجري عملية تقييم خصوصاً اننا حركة عليها في استمرار مراجعة مواقفها على أن يجري التقييم في جو رفاقي وليس في جو فريق يريد محاسبة الفريق الآخر، أو اهانته.

ولقد تبنينا في حينه النواحي السليمة مما تضمنته الدراسة ونبهنا رفاقنا الذين أعدوها إلى مسألة نهج التقييم، بمعنى أنه لا يجوز طرح تقييمات وحيدة الجانب، ولا يجوز أن يتم الطرح بشكل تُشْتَم منه المحاسبة، مع تأكيدنا على أن الأفكار التي تضمنتها الدراسة قيّمة بدليل اننا قررنا تبنّي بعضها.

وانتهى ذلك الاجتماع باستمرار وحدة «الحركة» على رغم التوتر الذي ساد الاجتماع. وصدرت وثيقة بالنتيجة التي توصلنا اليها. وقد كانت الوثيقة بالمفهوم العلمي خطوة إلى الأمام. وكان الرفيق محسن ابراهيم يشكّل الشيء الجديد بالنسبة إلى «الحركة» في تلك المرحلة. والشيء الجديد لم يكن ماركسياً – لينينياً. وبالعكس كان الرفيق محسن متأثراً في تلك الفترة بالنهج الديمقراطي الليبرالي.

وسارت الأمور بشكل سليم وطبيعي، إلى أن تجدَّد النقاش الحاد بعد الانفصال. فقد عقدْنا في أعقاب الانفصال السوري اجتماعاً قيادياً موسعاً لمناقشة تجربة الوحدة وتحليل أسباب فشل الوحدة. وفي تلك الفترة كان الرفيق محسن ابراهيم أبرز عناصر المجموعة ذات الأفكار الجديدة حيث ان الرفيق نايف حواتمة والرفيق محمد كشلي لم يكونا يحضران المؤتمرات القيادية.

وحتى هذا الاجتماع لم يكن قد حدث تناقض أو انشقاق، وكنت مع عدد من أعضاء القيادة المؤسّسة سعداء بالأجواء الجديدة التي تعيشها الحركة.

بداية التناقض حدثت على أثر اجتماع قيادي موسع عُقد عام 1963 ولم أحضره. وبعدما قرأتُ الوثيقة التي صدرت عن هذا الاجتماع شعرتُ ان المسألة لم تعد مسألة أفكار جديدة وإنما هي أبعد من ذلك. فالوثيقة ترى ضرورة الالتحام الكامل بالناصرية. ولقد وقفتُ ضد ذلك لأن معنى الالتحام هو حل «الحركة»

وتذويبها. وقلتُ للرفاق إن التحالف مع الناصرية ممكن، أما الالتحام بها فغير ممكن. ووجهة نظري التي عرضتُها هي أنه من خلال التحالف يمكن أن نستكشف آفاق الحركة العربية الواحدة التي كان طرحها كشعار جمال عبدالناصر.

في ذلك الوقت كنت بدأتُ طرح تقييم للناصرية يختلف عن التقييم الذي كان يطرحه الرفيق محسن ابراهيم، وخلاصته أن نقف بجرأة مع كل احترامنا وحبنا لقيادة عبدالناصر، أمام سلبيات التيار الناصري، لأننا لا نستطيع أن نخدم الثورة بمجاملة هذا التيار، وإنما بوقفة علمية أمامه.

وكنت أرى أنه اذا حدث ان اندمجنا بالتنظيم الناصري المليء بالتناقضات وأصبحت القوى التي كانت تحكم مصر في تلك الفترة هي المسؤولة عن التنظيم الواحد، سيتحول هذا التنظيم إلى تنظيم تبعي وبيروقراطي، وبالتالي لن يحقق الأهداف الثورية البعيدة المدى للجماهير. ولو أن عبدالناصر الذي نطمئن نسبياً اليه تولى هذه المسؤولية كان الأمر إختلف، لكن المسؤولية كانت ستقع على عاتق القوى التي كانت تحكم مصر آنذاك وهي ليست مؤهلة لقيادة تنظيم واحد له مهمة ثورية بالغة الأهمية. هذا التقييم بدأْتُه في فترة كنت خلالها مختفياً في سورية. وبعدما عدت إلى لبنان دعوت إلى مؤتمر لمناقشة هذه الأمور. ويومها كانت هنالك وجهة نظر مطروحة من جانب الرفيق محسن ابراهيم وهي أن حركة التحرر الوطني بفصائلها المتعددة من «حزب البعث» إلى «الحزب الشيوعي» إلى «حركة القوميين العرب» لم تمثّل شيئاً وان الناصرية مثّلت مجرى التاريخ، ولذا فإن على هذه الفصائل أن تحل نفسها وتلتحم بالناصرية. وأنا لست مع سلبيات الأحزاب الشيوعية و«البعث» و«حركة القوميين العرب» لكن ذلك لا يعني ان ليس لهذه الفصائل ايجابيات. كذلك انه ليس بالتحليل العلمي التأكيد على سلبيات هذه الفصائل واعتبار الناصرية خالية من السلبيات. بالإضافة إلى ذلك ان أسلوب الحل ليس منطقياً وان البديل لذلك هو عملية تحالف تستهدف الوصول مستقبلاً إلى صيغة التنظيم الواحد.

عقَدْنا المؤتمر الذي كان أكثر المؤتمرات التي عقدَتْها «حركة القوميين العرب» حدة. وفي هذا المؤتمر شعرنا ان داخل «الحركة» تيارين. التيار الذي يدعو إلى

الالتحام بالناصرية والتيار الآخر المعارض للفكرة. ويمكن أن نذكر أسماء من التيار الأول لأن معظمها مازال في حركة العمل الوطني. وهذه الأسماء هي رموز. هنالك مثلاً محسن ابراهيم ومحمد كشلي ونايف حواتمة وعبدالاله النصراوي. وهنالك أيضاً شبان تبنوا أفكار هذا التيار لكنهم تركوا العمل الوطني أمثال وليد قزيها.

ومنذ ذلك المؤتمر بدأت «الحركة» تشهد نوعاً من التناقض الحقيقي وأصبح الرفاق الذين دعوا إلى الالتحام بالناصرية وحل «الحركة» يعتبرون أنفسهم اليسار وان القيادة المؤسسة لـ«الحركة» في نظرهم هي اليمين.

وبأمانة أقول إن عدداً من أعضاء الفريق المؤسس هو الذي اتخذ في ضوء عملية الجدل والحوار موقفاً يسارياً علمياً، أما الرفاق الذين اعتبروا أنفسهم يمثلون اليسار فإنهم كانوا يعكسون نوعاً من الطفولة اليسارية.

بعد ذلك المؤتمر توترت الأجواء. وتفادياً لحدوث انشقاق اتفقنا على الدعوة إلى مؤتمر عُقد في شباط/ فبراير 1965 توصَّلنا فيه إلى وثيقة موحَّدة كانت بمثابة محصلة لوجهتي النظر. وعلى سبيل المثال فإن الوثيقة أشارت إلى أن الناصرية ليست كلها ايجابية وإنما فيها ثغرات ويجب العمل على تصحيحها. وبالنسبة إلى مسألة الالتحام بالناصرية اتفقنا - وضمنّا ذلك الوثيقة - على ان الالتحام يشكل الأفق الاستراتيجي للعلاقة، وأننا سنصل ذات يوم إلى أن ننتهي كحركة قوميين عرب ونصبح جزءاً من تنظيم جديد يمثل تنظيم الثورة العربيبة، لكن ذلك لن يتم بعصا سحرية ولا بشكل هوائي بمعنى ان نحل أنفسنا ثم نجلس ننتظر.

والآن يمكن القول إن تلك الوثيقة جمعت كل ما هو ايجابي في وجهتي النظر. واستعادت «الحركة» بعد جهد كبير وحدتها. وأتذكر كيف ان عدداً من الرفاق قطعوا الأمل في امكانية تفادي الانشقاق.

وجاءت الأحداث بعد المؤتمر تعزز وجهة نظر عدم حل «الحركة». وجاءت أيضاً تجربة اليمن الديمقراطي التي أمكن «الحركة» من خلالها الوقوف على سلبيات الأجهزة في مصر وأساليبها في التعامل مع القوى الوطنية. وصحيح أن «الحركة» استعادت وحدتها إلاَّ أن ذلك لم يحل دون استمرار وجهتيْ النظر

مطروحتيْن.

ويؤلمني أن أقول بان ما حدث عام 1967 عزز وجهة النظر القائلة بالوقوف موقف المتحالف مع الناصرية من دون إسقاط النقد لها. وعلى رغم الهزيمة فإن الفريق الداعي إلى الحل والإلتحام إستمر مشدوداً إلى الناصرية. وكتبت مجلة «الحرية» التي كان مسؤولاً عنها الرفيق محسن ابراهيم مقالات من نوع «لم يُهزم عبدالناصر».

ويبدو أن التناقض الذي استشرى بعد ذلك كان لا بد أن ينتهي إلى انشقاق. وأصبح الرفاق الذين كانوا يمثِّلون شيئاً جديداً يسلكون مسالك التذبذب والمزايدة. وأصبحوا يهاجمون عبدالناصر أكثر من اللازم وهم الذين طرحوا أفكاراً تدعو إلى الالتحام بالناصرية، في حين أننا وقفْنا بأخلاقية مع عبدالناصر بعد الهزيمة وحلَّلنا الهزيمة بإسلوب علمي وليس بالمزايدة.

*** ما هي نظرتكم كقيادة مؤسِّسة إلى العناصر التي انشقت. هل تعتبرون هذه العناصر انفصالية مثلاً وفي أي خانة تضعونها؟ وما الذي يمنع تجديد الحوار معها بهدف العودة والوحدة؟**

- نحن نسميهم اليسار الانتهازي أو الطفولة اليسارية. ونسميهم أيضاً الفريق الانشقاقي. نرى أنهم لو استمروا يناضلون ويقاتلون من خلال التنظيم لكانوا يشكلون قوة فاعلة. وهم ضمن المعسكر الوطني وإن كان بعض الرفاق يرى أن المخابرات المركزية الأميركية هي التي تقف وراء انشقاقهم.

والسعي من أجل التحالف والتعاون مع العناصر الانشقاقية واجب لأن هدف كل منا كقوة وطنية هو خدمة قضايا جماهيرنا. لكن التعاون يحتاج لكي يتعزز إلى موقف سياسي موحَّد. وهنالك خلاف أساسي حول موضوع تسوية أزمة الشرق الأوسط. واذا كان التعاون غير ممكن بالنسبة إلى بعض القضايا فإنه ممكن بالنسبة إلى بعض القضايا الأخرى. وأذكر أنه خلال أحداث الأردن كانت الانشقاقات حديثة العهد والجراح الذاتية عميقة. وقد تجاوزْنا ذلك وبدأنا نفكر جدياً في اقامة

جبهة واحدة مع «الجبهة الديمقراطية». واذا حدث أن تعرَّضنا الآن أو مستقبلاً لمحاولة ما من جانب اسرائيل فإننا سنواجهها معاً.

وفي هذه المرحلة بالذات هنالك خلاف أساسي فيما يتعلق بالموقف السياسي. لكن الأمور متحركة. والمرحلة السياسية الراهنة لن تبقى على ما هي عليه. وستُثبت الأحداث مَن منا كان المصيب في موقفه. ولا بد أن فريقاً سيراجع موقفه.

هنالك مجال لعودة اللقاء، لكن هذا اللقاء في تقديري يجب أن يكون ولفترة طويلة جبهوياً. وقد تفرض التطورات على كل القوى الوطنية الراديكالية الثورية الانصهار في تنظيم موحد.

وفوق ذلك هنالك عوامل ذاتية وشخصية تلعب دوراً مهماً. على سبيل المثال لا يمكن تجاهُل الكتاب الذي وضعه الرفيق محسن ابراهيم (لماذا منظمة الاشتراكيين) الذي يقيِّم «حركة القوميين العرب» على أساس أنها فاشيست وتخلف. ان ذلك ترك أثراً سيئاً في النفس.

انني لا أغلق الباب اذا حدثت مراجعة من قِبَلهم. لكن المسألة يجب أن تسلك في النهاية خطاً علمياً ويجب أن تأخذ مداها.

الفصل الثامن

انقلاب أم ثورة؟

*** الحديث عن مرحلة التأسيس وعن التناقضات التي شهدَتْها «حركة القوميين العرب» يقودنا إلى سؤال أساسي وهو: أين «حركة القوميين العرب» الآن؟ إلى أين انتهت، وهل ان «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» أصبحت البديل لها؟ وكيف يمكن تقييم التجربة بشكل عام؟**

- لقد انتهت «حركة القوميين العرب» كحركة ثورية في الاقطار التي عملت فيها. أما الفروع القُطرية فلم تنته.

إن المؤسسة التي اسمها «حركة القوميين العرب» لم تعد قائمة كحركة مركزية وتنظيم مركزي في مختلف أجزاء الوطن العربي، وتحولت إلى حركات ثورية موجودة قُطرياً بأفق قومي. وهي إجمالاً تشكّل قوة أساسية من الحركة الوطنية في بعض الساحات العربية. وعلى سبيل المثال ان فرع «الحركة» في اليمن الديمقراطي ساهم بقوة في تأسيس الجبهة القومية التي تقود الثورة الآن. وفي اليمن الشمالي أصبح فرع «الحركة» يعمل بإسم «الحزب الديمقراطي الثوري». وهناك عدد من الرفاق يعملون الآن في اليمن الشمالي أيضاً بإسم «المقاومين الثوريين». وفي الكويت أصبح فرع «الحركة» عبارة عن مجموعة من الشبان الديمقراطيين على رأسهم الدكتور أحمد الخطيب أحد أفراد القيادة المؤسِّسة. وفي الخليج أصبحت «الجبهة الشعبية لتحرير الخليج» هي البديل لفرع «حركة القوميين العرب». وهذه الجبهة التي أصبح اسمها «الجبهة الشعبية لتحرير عُمان» لها فروع في معظم مناطق الخليج

وبدأ فرع «الجبهة» في البحرين يصبح قوة أساسية عاملة. وفي الساحة الفلسطينية انتهى فرع «حركة القوميين العرب» إلى «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» و«الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين».

واذا جاز القول فإن كل فرع من فروع «الحركة» أصبح يقود فعلاً حركة الثورة في القطر الذي هو فيه وانه جزء من حركة الثورة في هذا القطر.

وفي لبنان أفرز فرع «الحركة» ما يسمى «منظمة العمل الشيوعي» وإن كان أركان المنظمة ينكرون ذلك لكن موضوعياً هؤلاء أو بعضهم كانوا عناصر قيادية في «الحركة».

وهنالك أيضاً «حزب العمل الاشتراكي العربي» الذي يضم عناصر قيادية من «حركة القوميين العرب».

تبقى مسألة التقييم. انه لا داعي للتحدث عن الجانب السلبي من التجربة ليس نكراناً وإنما لأن بعض الرفاق أوفوا هذه الناحية حقها. الذي يمكن الحديث في شأنه هو أننا لم نكن من البداية نملك نظرية ثورية. كنا تنظيماً بورجوازياً في فكره، والفكر القومي لا يمكن أن نعتبره لوحده فكراً ثورياً. وعدم امتلاكنا دليلاً نظرياً أوقعنا في أخطاء كثيرة سياسية وتنظيمية، كما ان افتقادنا إلى رؤية بعيدة المدى لم يمكّننا من طرح بديل للحركة الناصرية. ولم يمكّننا أيضاً من ان نفيدها في عملية الجدل التي كانت قائمة بيننا وبينها.

لكن هنالك ثلاث نقاط أساسية علمية وعملية يجب تسجيلها في معرض تقييم «الحركة»، وهي:

- ان «حركة القوميين العرب» كانت فصيلاً من فصائل حركة التحرر الوطني العربي. كانت في المشرق بالذات «الحركة» الجماهيرية التي تصدت للأحلاف وساندت القيادة الناصرية ووقفت في وجه الامبريالية بشجاعة. ان من حق الشيوعيين أن يقولوا إنهم كانوا دائماً فصيلاً مناهضاً للامبريالية. ومن حق «البعث» أن يقول الشيء نفسه. لكن «حركة القوميين العرب» يمكنها إضافة شيء إلى ذلك وهو أنها لم تكن يوماً في موقع مضاد للجماهير. وتحالُفنا مع الناصرية كان من هذا المنطلق. وفي رأيي إن عدم وقوفنا في موقف مضاد للجماهير شكّل لنا حماية من

أي خطأ سياسي يضعنا في الموقع المضاد لحركة الجماهير. إن الأحزاب الشيوعية مناهضة للامبريالية لكنها عندما إتخذت موقفاً سلبياً من الوحدة العربية وقعت في خطأ سياسي وضَعَها في موقع مضاد لحركة الجماهير. وإلى حد ما فعل حزب البعث ما جعله يوضع في الموقع المضاد لحركة الجماهير. أما «حركة القوميين العرب» فإنها لم تتخذ في تاريخها أي موقف سياسي يضعها خارج حركة الجماهير.

– ان «الحركة» عاشت مرحلة تطور أو عملية تطور متصلة في اتجاه اليسار. بدأت «الحركة» بطرح شعار «وحدة. تحرر. ثأر» وتصاعد التطور إلى حد وضع وثيقة تموز 1967 التي هي في تقديري وثيقة نظرية وضَعَتنا على أبواب تنظيم ثوري جذري اجمالاً على رغم ما يقال في موضوع التناقض الذي شهدته «حركة القوميين العرب».

– ان كل فورع «حركة القوميين العرب» هي الآن جزء أساسي من اليسار العربي الثوري أو الجذري.

وهذه النقاط الثلاث اذا أُخذت في الاعتبار تضعنا أمام تقييم علمي وشامل لما حققته «الحركة». أما النواحي السلبية التي لابد من تحديدها فهي اننا نشأنا من دون أن نمتلك نظرية ثورية.

*** ثمة ملاحظة وهي أن «حركة القوميين العرب» لم تلجأ إلى العنف في حين قلت، إن العنف كان أحد أهدافها. إلى ماذا ترد ذلك؟**

– في فترة التأسيس حاولنا الاستمرار في ممارسة العنف من خلال التسلل إلى فلسطين المحتلة وتوجيه ضربات إلى الاحتلال الاسرائيلي لكن قيادة غلوب باشا قهرتْنا ولم نستطع التغلب على هذه العقبة. وفي الأردن لم نكن فقط مشدودين إلى موضوع التنظيم السياسي والمحاضرات والندوات والتظاهرات وإنما كنا مشدودين وفي غاية الحماسة إلى موضوع العنف لولا العوائق التي وقفت في طريقنا. وبسبب فشِلنا في ممارسة العنف بشكل منتظم وتصاعدي لجأنا إلى توسيع دائرة النشاط التنظيمي والسياسي وانغمسنا فيه.

وهنا لا بد من الوقوف عند نقطة تتعلق ببنيتنا الطبقية والايديولوجية. نحن من البورجوازية الصغيرة. وعندما وجدْنا المجرى مفتوحاً أمامنا للعمل السياسي مشينا فيه ولم نستمر مشدودين إلى المجرى الأصعب الذي هو بناء منظمة كفاحية مسلحة تقارع العدو من خلال العنف. وأي تنظيم واع في الخمسينات كان عليه أن يدرك أنه لا يستطيع تحقيق أهداف الجماهير إلاّ من خلال العنف. وليس بالضرورة اعتماد العنف فوراً وإنما الإعداد للعنف لأن ممارسة العنف تحتاج إلى ظروف موضوعية. ومن أجل ذلك فإننا في مرحلة التأسيس ركَّزنا على مسألة العنف وبعدما حاولْنا وفشلنا أصبحنا ننتظر الظروف الموضوعية.

ومرَّت فترة لم تكن الظروف الموضوعية لممارسة العنف متوافرة لكن الموقف فرض اللجوء إلى العنف. كان ذلك بعد الانقلاب الرجعي الذي وقع في الأردن يوم 24 نيسان 1957. قبل هذا الانقلاب كنا نمارس نشاطنا السياسي وجاء الانقلاب ليمنع التظاهر واقامة الندوات وأي عمل سياسي علني مناهض للحكم الرجعي. وقمنا بعمليات ارهابية ضد هذا الحكم تمثلت بالقاء قنابل ومتفجرات لكنه ليس العنف المطلوب في أي حال.

وبعد الانفصال عام 1963 بدأنا نفكر جدياً في مسألة إعداد جهاز عسكري فلسطيني قاد بعد ذلك إلى إنشاء «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» التي مارست العنف بعدما توافرت الظروف الموضوعية وبعدما أصبح النضال السياسي لا يكفي.

ولقد اعتمدنا العنف في بعض المرات لحسم المتناقضات. وفي اليمن الديمقراطي كان العنف هو الوسيلة بالنسبة إلى رفاقنا الذين قادوا ثورة مسلحة.

وأخلُص من ذلك إلى القول إننا طرحْنا منذ البداية طريق العنف ولم نسلك الطريق إلاّ بعد توافر الظروف الموضوعية.

*** يلاحَظ أنكم في مرحلة التأسيس، ثم في مرحلة التوسيع، كنتم تلجأون إلى العناصر المثقفة وبالتحديد العناصر المدنية. ما الذي حال دون إعتماد التجربة التي إعتمدها «البعث» مثلاً وهي التسلل في شكل أو آخر إلى المؤسسات العسكرية، خصوصاً ان التغيير عن طريق العسكريين أسهل، أو أنكم حاولتم وفشلتم ولماذا؟**

- لقد شهدت سورية ثلاثة انقلابات فاشلة. وفي تلك الفترة حدثت ثورة 23 يوليو 1952 في مصر وكنا نرى ونتوقع، بل اننا سجَّلْنا ذلك كتابة، ان يلقى الانقلاب المصري، الذي لم نقتنع في البداية أنه ثورة، مصير الانقلابات التي حدثت في سورية. وللمناسبة ان المحتوى التقدمي لثورة 23 يوليو لم يتبلور بالنسبة الينا إلاَّ بعد صفقة السلاح التي عقدها جمال عبدالناصر مع تشيكوسلوفاكيا.

بالإضافة إلى ذلك فكَّرنا أنه اذا توجَّهنا إلى القطاع العسكري سيصبح التنظيم السياسي مع الوقت خاضعاً للعسكريين في حين انه اذا امكننا إنشاء تنظيم سياسي قوي فإن هذا التنظيم يستطيع التحكم بالتنظيم العسكري عندما نوجده.

الواقع أننا أوجسنا خيفة من الانجراف في مسألة التنظيم العسكري لأننا لو أنشأنا خلية من الضباط ونجحنا في ذلك سنسعى إلى إنشاء خلية أخرى وهكذا إلى ان نصل ذات يوم إلى تنفيذ انقلاب عسكري لن يكون مصيره أفضل من مصير الانقلابات التي شهدتها سورية.

وبأمانة أذكر أنه بعد فترة أدركْنا أن عدم اهتمامنا بالمؤسسة العسكرية كان تصرفاً خاطئاً.

*** أنت تتحدث عن انقلابات عسكرية تقليدية وأنا قصدي أن تواجُد عناصر مثقفة وقومية داخل الجيوش من شأنه إحداث حركة تغيير جذرية، أي أنه ليس بالضرورة أن يكون العنصر المنتمي إلى «الحركة» والعامل داخل الجيش من نوع حسني الزعيم أو غيره؟**

- انني أتحدث عن الانقلابات التقليدية لأنها التجربة التي كانت مطروحة في الساحة. ونحن مع ادراكنا المتأخر إلى أهمية زرع عناصر داخل المؤسسات العسكرية العربية إلاَّ أننا في الوقت نفسه كنا نرى أن أي تغيير عسكري غير مستند إلى تنظيم سياسي قوي كان سيصبح تقليدياً. واذا كان التنظيم السياسي صغيراً فإنه سيصبح أسير العسكريين مع الوقت.

*** هل تولَّدت أيضاً قناعة بأن التغيير مستحيل إلاَّ عن طريق العسكريين؟**

- كنا نرى أن التغيير يتم بالقوة والعنف. وكنا ننظر إلى الجيش على أنه قوة أساسية يمكن الاستناد إليها في عملية التغيير. لكننا في مرحلة التأسيس كنا نرى أنه اذا توجَّهنا إلى القطاع العسكري فإن ذلك سيُحدث انحرافاً في طبيعة بنيتنا. يضاف إلى ذلك ان التنظيم العسكري نتيجة تقييم خاطئ قد يقْدِم على عملية التغيير من دون أن يأخذ في الاعتبار وجهة نظر التنظيم السياسي.

*** ان نسبة المثقفين والدارسين والباحثين في «حركة القوميين العرب» كبيرة ومع ذلك فإنكم لم تقْدِموا على كتابة تاريخ هذه التجربة. هل هناك ما يحول دون ذلك؟**

- إن ما صدر عن «الحركة» من منشورات وأدبيات وصحف ومجلات يشكِّل في مجموعه مواد دسمة لعملية تأريخ الحركة. هناك مجلة «الرأي» التي كانت المجلة المركزية. وهنالك نشرة «الثأر» التي كنا نطرح من خلالها مواقفنا السياسية. ثم هنالك مجلة «الحرية» التي بقيت فاعلة إلى أن حدث التفجر والانشقاق داخل «الحركة». وهنالك بالإضافة إلى هذه الوثائق الجماهيرية، الوثائق التنظيمية الداخلية التي تعطي صورة حية وعلمية وأمينة عن مسيرة «الحركة».

ومن أمنياتي أن تمكِّنني الظروف لأكتب بالتعاون مع بعض الرفاق تاريخ «حركة القوميين العرب» ونسجل دقائق هذه التجربة تسجيلاً علمياً يشمل الايجابي والسلبي والانجازات والأخطاء والثغرات. ومثل هذا العمل ضروري ومفيد وواجب، ومن شأنه أن يرسم معالم مضيئة في طريق النضال الدائم والمستمر.

*** ما هي قصة «حركة القوميين العرب» مع جمال عبدالناصر. كيف بدأت. كيف تطورت. لماذا ساءت؟**
وكيف كانت علاقتك شخصياً مع عبدالناصر؟

- يجب أولاً التمييز بين علاقة «الحركة» بعبدالناصر وعلاقتها بالجمهورية العربية المتحدة. العلاقة مع الجمهورية العربية المتحدة بدأت مع قيام الوحدة بين مصر وسورية عام 1958. وفي تلك الفترة لم تكن هنالك علاقة بيننا وبين عبدالناصر. كانت علاقتنا مع عبدالحميد السراج والمشير عبدالحكيم عامر وبعض المسؤولين المدنيين والعسكريين. ومن خلال هؤلاء كنا نطرح ما عندنا من وجهات نظر وملاحظات وانتقادات. ومع هؤلاء كنا نناقش طلباتنا وأبرزها تأمين دورات تدريب لرفاقنا بما يخدم متطلبات النضال العربي.

أما العلاقة مع عبدالناصر فبدأت بعد اللقاء الأول الذي تم بين «الحركة» وبينه وكان ذلك بعد الانفصال بقليل. ولم أحضر هذا اللقاء لأنني كنت في سورية أناضل مع الرفاق ضد الانفصال الذي حدث. لكن بعض الرفاق المتواجدين في لبنان والذين كانوا يملكون حرية الانتقال قرروا ايفاد اثنين من الرفاق إلى القاهرة للاجتماع إلى عبدالناصر أحدهما محسن ابراهيم.

وكان الخط الذي طرحَتْه «الحركة» آنذاك هو النضال من أجل اعادة الوحدة. وكان ذلك يتطلب نوعاً من التنسيق بين قيادة عبدالناصر والقوى الناصرية التي تعمل في سورية، أي نحن.

ولقد أشار التقرير الشفهي الذي رُفع إليَّ عن اللقاء إلى أنه تم عرض نقدي صريح لتجربة عبدالناصر وان عبدالناصر تضايق نسبياً من عملية النقد لكنه ضبط أعصابه. واللقاء الأول، تم على مرتين. وفي المرة الثانية كان الاجتماع ايجابياً أكثر من الأول. وفيه أبدى عبدالناصر وجهة نظره بصراحة وعرض وفدنا وجهة نظره بصراحة أيضاً. ولفت عبدالناصر نظر وفدنا إلى أن الخطأ لم يكن في عدم إعطاء مدى للديمقراطية وإنما في الحرية التي أُعطيت للقوى الرجعية وللثورة المضادة التي قامت بعد الاجراءات الاشتراكية. وكان عبدالناصر في تحليله أقرب إلى النظرة الاشتراكية العلمية. وفي الاجتماع الثاني قال وفدنا ان الجماهير كانت مضغوطة ولم تعط الحق في المبادرة وفي تنظيم نفسها وفي اثبات فعاليتها.

بعد هذا اللقاء مع عبدالناصر أصبحت العلاقة جيدة معه. ولا يمكنني أن أعدد اللقاءات إلاَّ أنه كان يتم كل أربعة أو خمسة أشهر لقاء بين «الحركة» وعبدالناصر.

بل انه كلما كانت تتجمع لدى «الحركة» ملاحظات أو آراء معيَّنة كان يتم لقاء لطرحها على بعد الناصر. ولم تطل فترة الانفصال التي عقدت «الحركة» خلالها ثلاثة اجتماعات مع عبدالناصر. وبعد ذلك بدأت محادثات الوحدة الثلاثية التي شاركْنا فيها من خلال الوفد السوري الذي ضم في عضويته أحد قياديي الجبهة الرفيق هاني الهندي.

وكان عبدالناصر يحرص بعد انتهاء المحادثات التي عُقدت ليلاً ونهاراً على ترتيب لقاء بينه وبيننا لأنه كان يرتاح لصراحتنا حتى انه مرة قال لوفدنا: الحقيقة أنني شعرتُ بالراحة وبأنني إنتُشلتُ لما شفت في ناس مازالت مؤمنة بالوحدة وتصارحني بالاخطاء، ولا تكتفي بتوجيه اللوم والانتقادات وتشارك في عملية الذبح لمجرد أن الانفصال وقع.

كانت تلك الفترة فترة تفاعل مكثَّفة بين «الحركة» وعبدالناصر. وبعدما عاد وفد «الحركة» الذي كان مشاركاً في المحادثات وقريباً منها عرض بالتفصيل نتائج المحادثات وما دار في اللقاءات الليلية بين عبدالناصر ووفدنا، وجدت «الحركة» نفسها أمام مواضيع غنية بالنسبة إلى أمور تتعلق بالوحدة ووحدة التنظيم والمؤسسات العسكرية، ومن خلال ما عرضه الوفد فإن عبدالناصر طرح في تلك الفترة قضايا أساسية ومهمة جداً.

هذا بالنسبة إلى لقاء «الحركة» بعبدالناصر. أما أنا فاللقاء الأول بيني وبين عبدالناصر تم في مطلع عام 1964 بعد حركة جاسم علوان عندما حدث تَصادُم بين «البعث» والقوى الناصرية. وفي الفترة التي تلت حركة جاسم علوان اختبأتُ لفترة في سورية لأنني كنت معتبَراً جزءاً من القوى الناصرية التي قام جاسم علوان بالحركة في سبيلها. وقد صدرت أحكام بالإعدام والسجن على عدد من الناس. وبقيت مختبئاً من تموز/ يوليو 1963 حتى مطلع 1964. وعندما وصلتُ إلى بيروت أصبحت عندي القدرة على التحرك وسافرتُ من بيروت إلى القاهرة. واتصلتُ بسامي شرف الذي كنتُ التقيته قبل ذلك أُبلغه أنني في القاهرة.

الفصل التاسع

المأزق

*** هل انتقلتَ إلى القاهرة بجواز سفر يحمل اسمك وما هو الانطباع الذي خرجت به بعد أول اجتماع بينك وبين عبدالناصر؟**

- أنا لا أستطيع التنقل بهذا الاسم. وأذكر أن سامي شرف اتصل بي في اليوم التالي وأبلغني بالموعد الذي حُدد لي مع الرئيس عبدالناصر. وأنا لم أطلب موعداً ولكن عندما حُدد الموعد شعرتُ براحة واعتزاز وسعادة خصوصاً أنني كنت متلهفاً إلى لقاء عبدالناصر وأنتظر هذا اللقاء بالرجل الذي كنتُ معجباً جداً به.

تم اللقاء في منزل الرئيس عبدالناصر في منشية البكري ليلاً، ووقفتُ على انسان له شخصية جذابة ومتواضع يكاد يقنعك بأنه لم يقم في حياته بأي عمل كبير مع انه يقيم الدنيا ويُقعدها في استمرار. ولأن اللقاء خلا من ضغوط الرسميات وتم في منزل عبدالناصر وليس في مكتبه فإن حديثي معه كان منطلقاً وصريحاً ومن دون رسميات.

في بداية اللقاء سألني عن الوضع في سورية وكانت المرة الأولى التي أتلمس فيها ارتباطه العاطفي المذهل والواضح بسورية. ورويت له بكل الأمانة ما سمعته عنه في الفترة التي اختفيت فيها في سورية لدى عائلات ناصرية. وللمناسبة كنت انتقل من بيت إلى بيت وهذا جعلني أحيط بأكبر كمية من وجهات النظر في عبدالناصر ورأي السوريين فيه.

ثم عرضْنا تجربة الوحدة وسلبياتها والأسباب التي أدت إلى الانفصال وحدثته

عن حركة الجماهير والتفافها حول قيادته.

وشعرتُ أنه ارتاح لطريقة العرض ربما لأنه رأى أن هناك من لا يزال قادراً على رؤية الأمور كما يجب أن تُرى على رغم حملات التضليل ضده وضد الناصرية وضد تجربة الوحدة.

وكان في ذهني موضوعان أساسيان جاء هذا اللقاء مناسبة جيدة لأتحدث فيهما مع عبدالناصر. الأول يتعلق بإحياء حركة الجماهير. والثاني يتعلق بمسألة الكفاح المسلح في الجنوب العربي، وبالثورة المسلحة من أجل استرداد فلسطين.

وأذكر أنه تحدث بحرارة عن الموضوعيْن وأبدى استعداده الكامل لأي مؤازرة بالنسبة اليها يتعلق بالجنوب العربي. أما بالنسبة إلى الموضوع الآخر فأذكر أنه ناقشني طويلاً فيه. وكان من رأيه ان موضوع فلسطين كبير ولا يجوز الحديث حوله بتبسيط. وردد خلال الحديث عبارة «إن عدونا ليس اسرائيل وإنما أميركا وعندما نريد الدخول في حرب يجب أن نتأكد سلفاً اننا ندخلها ضد أميركا».

واتفقنا على أنه لابد أن تقوم الثورة المسلحة ضد اسرائيل ذات يوم وانه في انتظار ذلك من المناسب الإعداد لذلك اليوم.

وفي نهاية اللقاء قال لي عبدالناصر إنه من المفيد تكرار اللقاءات وانه يرحب بلقائي في كل مرة أكون فيها في القاهرة.

وبعد اللقاء الأول بعبدالناصر بدأتُ مع الجهات المختصة في مصر تنفيذ ما اتفقتُ عليه مع عبدالناصرِ وهو البدء في إعداد الكفاح الفلسطيني المسلح، ومساندة العمل الثوري المسلّح في الجنوب العربي.

خرجتُ من لقائي الأول بعبدالناصر متأثراً جداً به وبالاسلوب الذي يعامل به رفاق القضية الواحدة. وقبل ان ينتهي اللقاء الأول الذي كان طويلاً دعاني إلى حضور مناورة بحرية في الاسكندرية. وكانت لفتة مؤثرة. وبعد ذلك تم لقاء ثان طويل بيننا ثم تكررت اللقاءات كل ثلاثة أو أربعة أشهر.

*** هل كنتَ في اللقاءات اللاحقة تصطحب أعضاء من «حركة القوميين العرب» معك، أم أنك كنت تقابل عبدالناصر لوحدك؟**

- معظم اللقاءات كانت تتم بشكل وفد. وأذكر لقاء موسعاً طويلاً جرى بيننا في مطلع 1965 ولقد ذهبْنا آنذاك خصيصاً إلى القاهرة لنعرض على عبدالناصر النتائج التي توصلْنا اليها في تقييمنا لأنفسنا وللناصرية، ولنبدي رأينا في مستقبل «الحركة» العربية الواحدة، وفي العلاقات بين الناصرية و«حركة القوميين العرب». وخلاصة رأينا الذي حملناه لنعرضه على عبدالناصر هو أن الناصرية هي المجرى الثوري لحركة الجماهير العربية وهي الأساس واننا على استعداد للالتحام في هذا المجرى استراتيجياً والمساهمة في تنظيم التيار الناصري في الوطن العربي بحيث تصبح الناصرية حركة ثورية منظمة لها فروعها في مختلف أنحاء الوطن العربي وتقود العمل الثوري الوحدوي الاشتراكي التحرري.

عندما طرحْنا ذلك على عبدالناصر كان يصغي باهتمام شديد. ولم يعلق كثيراً وإنما قال لنا إنه يفضل أن نطرح الموضوع أمام عدد من الاخوان ولذا يفضل أن نبقى في القاهرة في انتظار ترتيب اجتماع موسع يحضره - كما قال لنا - المشير عبدالحكيم عامر وزكريا محيي الدين وعلي صبري.

وتم اللقاء الذي تغيَّب عنه المشير وحضر من جانبنا معي الرفيقان هاني الهندي ومحسن ابراهيم. وأذكر ان الوحيد الذي ناقشنا باستفاضة كان زكريا محيي الدين الذي أشار إلى سلبيات اقتراحنا طارحاً تساؤلات من نوع هل تستطيع الجمهورية العربية المتحدة أن تتحمل بالفعل نتائج هذا العمل الثوري، وكيف ستكون طبيعة العلاقات، وماذا لو حدث خلاف في وجهات النظر؟

وبعد يومين من هذا الاجتماع دُعينا إلى مقابلة الرئيس عبدالناصر الذي قال إنه يقدِّر شعورنا بالمسؤولية تجاه العمل العربي الثوري، وتقييمنا للجمهورية العربية المتحدة ودورها، لكنه يرى عدم التسرع واتاحة المجال أمام المزيد من المناقشة والتفكير.

وقال أيضاً إنه يفضل التدرج في اتخاذ قرار بالنسبة إلى ما عرضناه، وانه يرى من خلال التجربة البسيطة في تعزيز التعاون والحوار اكتشاف أفضل صيغة للتعاون.

وأشار عبدالناصر إلى ان المناقشة التي تمت جعلت علاقتنا تتقدم خطوة إلى الامام طالباً تأجيل البت بالاقتراح الذي طرحناه.

*** ما هو بشيء من التفصيل الاقتراح الذي طرحتموه؟**

– ما طرحناه كان بالتحديد تحليلاً نظرياً وليس اقتراحاً، وهو متعلق بأزمة الثورة العربية. وخلاصة هذا التحليل ان الثورة العربية تواجه أزمة بعدما ضُربت الوحدة. فبعد قيام الوحدة عام 1958 كانت الجماهير العربية تتوقع تحقيق أهدافها خلال عشر سنين ثم حدث الانفصال مشكِّلاً صدمة قاسية في نفوس هذه الجماهير. وعلى رغم ذلك تبقى الناصرية هي المجرى الأساسي وهي قائد الثورة. لكن في هذا المجرى ثغرات لأنه غير منظَّم. واذا انتقلنا إلى العمل الوطني أو العمل الثوري خارج مصر ماذا نجد؟ نجد ان هنالك تياراً ناصرياً غير منظَّم وغير موحَّد ولا يلتقي بالتخطيط الكامل مع القيادة الناصرية. ومن هنا ضرورة اعطاء التيار الناصري محتوى نظرياً وسياسياً وتنظيمياً بحيث تتحول الظاهرة من حركة جماهيرية وعفوية إلى تنظيم سياسي في مختلف أنحاء الوطن العربي. ونحن على استعداد لتحمُّل مسؤوليتنا والمشاركة مع القوى الناصرية الأخرى في القيام بهذه المهمة.

*** هل تأثرت العلاقات بينكم وبين عبدالناصر لأنه لم يأخذ بهذا الاقتراح أو التحليل النظري كما تسميه؟**

– على رغم ان فكرة العلاقة المنظَّمة لم يُعمل بها لأن عبدالناصر كان من رأيه التريث بالنسبة إلى إنشاء تنظيم ثوري وسياسي من التيار الناصري، إلاَّ ان التعاون إستمر. وفي كل اللقاءات كان موضوع الكفاح المسلح في الجنوب العربي على جدول الاعمال. كذلك لم يُعقد اجتماع إلاَّ وبحثْنا في مسألة الثورة الفلسطينية المسلحة.

*** بالنسبة إلى موضوع الإعداد لكفاح فلسطيني مسلح، هل كان الغرض منه أن يتم كبديل لمعركة ضد اسرائيل تقوم بها مصر أم ان الغرض هو أن يكمل مهمة**

مصر ويساندها؟ وما هي النقاط التي التقيتم حولها والنقاط التي حدث خلاف في شأنها بالنسبة إلى هذا الموضوع؟

- من المهم التأكيد بأن الاتفاق كان تاماً مع عبدالناصر بالنسبة إلى مسألة الإعداد للكفاح الفلسطيني المسلح، لكن الخلاف في وجهات النظر كان حول متى يبدأ هذا الكفاح.

ونحن كنا نرى ان يتم البدء بالكفاح المسلح على الفور وأن يكون بمثابة حركة تحرر وطني فلسطيني مستندة إلى القاعدة الناصرية وليست بديلاً عنها. وكنا نرى انه عندما يمارس الشعب الفلسطيني دوره وتسانده الناصرية بصفة كونها قاعدة للثورة العربية فإن الموقف سيتبدل.

وكان هناك التقاء حول بعض الأمور والمفاهيم. وفي الوقت نفسه كان هنالك اختلاف حول أمور ومفاهيم أخرى.

من الأمور والمفاهيم التي تفاهمْنا مع عبدالناصر حولها هو إعداد فدائيين وتدريبهم وتسليحهم، والتسلل إلى الأراضي المحتلة لإكتشاف الطرقات والمراكز، وايجاد نوى تنظيمية داخل الأراضي المحتلة.

أما الأمور والمفاهيم التي لم نتفق في شأنها فأبرزها ان توجيه ضربات إلى اسرائيل مسألة مبكرة. وكانت وجهة نظر عبدالناصر أنه من الممكن القيام بعمليات ورسم حدود معيَّنة لها في أذهاننا لكن الجانب الاسرائيلي سيرد ومن الصعب التحكم في رد الفعل الاسرائيلي. ومادمنا لسنا مستعدين لمواجهة حجم رد الفعل فمن الطبيعي عدم الإقدام على خطوة ليس في الإمكان مواجهتها.

وكان عبدالناصر يقول، وردد ذلك مرات في خطبه أمام الجماهير، إننا عندما نفكر بمحاربة اسرائيل يجب أن نفكر بأننا لا نحاربها وحدها وإنما نحارب معها الامبريالية الاميركية وهذا يحتاج إلى توافر ظروف معيَّنة.

أما نحن فكنا نرى ان العمل الثوري هو الكفيل بتوليد هذه الظروف وانه لمجرد ان يبدأ العمل الثوري تنمو حركة الجماهير الفلسطينية وتخلق حالة تُمكن عبدالناصر من مواجهة الامبريالية واعتداءاتها التي تترتب على ذلك.

*** هل لمستم لدى عبدالناصر اقتناعه بإمكانية استعادة فلسطين بالكفاح المسلح، بمعنى هل ان وجهة نظره التقت مع وجهة نظركم خصوصاً بالنسبة إلى مسألة ازالة اسرائيل في المستقبل؟**

- لم يخامرني شك في ان عبدالناصر كان مؤمناً ايماناً حقيقياً بامكانية إستعادة فلسطين بالكفاح المسلح. وفي أحاديثه معنا كان يشير إلى هذه المسألة ويركز عليه ومن هنا حماسته للإعداد لهذا الكفاح المسلح. كذلك كان يشير إلى قدرة الامة العربية على ازالة اسرائيل مستقبلاً. ولم يتخذ مثل هذا الموقف مسايرة لنا وتجاوباً مع حماستنا للعمل الفلسطيني المسلح. وهو لو كان غير مقتنع بما يقوله لما قال شيئاً. ان عبدالناصر رجل ثوري لا يؤمن بالمسايرات.

*** هل كنتم تشعرون ان عبدالناصر يحيطكم بحقائق الموقف ولا يخفي شيئاً عنكم وإلى متى استمرت العلاقات جيدة بينكم وبينه؟**

- بالإضافة إلى أحاديثنا عن الكفاح الفلسطيني المسلح والكفاح المسلح في الجنوب العربي كان الحديث عن سورية وحركة الثورة العربية في المشرق لا ينقطع في كل لقاء. وكان عبدالناصر مشدوداً إلى سورية وينظر إلى أي تحرك ثوري مشرقي من خلال سورية ثورية ووحدوية.

وكان عبدالناصر يضعنا في استمرار في الصورة ويقول إن ما يتحدث في شأنه معنا لا يعرفه إلاً عدد قليل في مصر من مسؤولين وغير مسؤولين. وهذا جعل رؤية الاحداث والتطورات في المنطقة العربية واضحة إلى حد ما.

كنا نستفيد من الحوار مع عبدالناصر. وكنا نشعر اننا نتحدث مع شخص ما زال ملتحماً بعجلة التاريخ العربي وعنده القدرة على دفع هذا التاريخ باتجاهات معيَّنة.

وطوال عام 1965 استمرت علاقاتنا بعبدالناصر جيدة وقائمة على الثقة والصراحة المتبادلتيْن. وفي مطلع عام 1966 تعرضت العلاقة بيننا وبين عبدالناصر،

أو بالاحرى بيننا وبين نظامه، إلى هزة بسبب اليمن الجنوبي.

وكان عبدالناصر في لقاءات سابقة طرح موضوعاً لم نشعر أنه مُلح وهو عبارة عن فكرة بإنشاء جبهة وطنية في اليمن الجنوبي. وكان يقول إن هنالك قوى وطنية أخرى بالإضافة إلى الجبهة القومية. وأذكر أنه سألنا رأينا في عبدالله الاصنج، وطلب مرة ان نلفت نظر الاخوان في عدن إلى ضرورة ان يكونوا منفتحين على القوى الوطنية الأخرى. ونحن لم نهمل وجهة النظر هذه لكن قبل إنشاء جبهة وطنية لابد من تحديد الفهم السياسي لها وللوحدة الوطنية. ولابد أيضاً من تحديد البرنامج السياسي لمثل هذه الجبهة ولدور العناصر الفاعلة فيها. ونحن من خلال مناقشات مع الرفاق في عدن لمسْنا استعداداً منهم لقيام جبهة وطنية بشرط ألاَّ يكون الشخص الذي يرضى بالحل الوسط في موقع القيادة. وكان الرفاق يرون مثلاً ان عبدالقوي مكاوي يرضى بحل وسط في حين ان الثورة لا تتحمل الحلول الوسط.

كنا بالفعل نشعر ان مسألة الجبهة الوطنية ليست بهذا الالحاح والاستعجال. ولقد أوحى لنا عبدالناصر بذلك.

وذات يوم من النصف الأول من كانون الثاني (يناير) 1966 سمعنا صباحاً من الاذاعة انه تمت عملية دمج بين الجبهة القومية وجبهة الاصنج وقامت جبهة تحرير وطنية موحدة. ولقد فوجئنا بالنبأ لأكثر من سبب أبرزها ان الخطوة تمت من دون تمهيد فعلي وان رفاقنا في عدن لهم نظرة إلى الموضوع قائمة على أن خطوة التوحيد يجب أن تتم بشكل متدرج وبعد حوار طويل وعلى أساس برنامج واضح ومواقف موحَّدة.

وإستنتج الرفاق في «حركة القوميين العرب» ان المسألة ليست طبيعية وانه لا بد هنالك قصة غريبة. واستنتجنا أن المخابرات المصرية التي كانت تتولى العمل العربي على حد قول محمد حسنين هيكل في كتابه عن حرب 1973 ربما كانت دفعت بالأمور إلى ذلك من دون أن يأخذ الشخص المعني في المخابرات عزت سليمان أو غيره في الاعتبار طبيعة وأهمية العلاقات الديمقراطية بين نظام عبدالناصر والقوى الوطنية العربية والثورية.

ولكي لا نستسلم إلى الاجتهادات والافتراضات سافرتُ أنا وهاني الهندي ومحسن ابراهيم إلى القاهرة. وقبل ان نقابل عبدالناصر كنا وقفْنا على حقيقة ما جرى في اليمن الجنوبي. وخلاصة ما جرى أن الأجهزة المصرية نجحت في إقناع ثلاثة رفاق من الجبهة القومية بإتخاذ الخطوة، وأن الرفاق الثلاثة وافقوا بمعزل عن قحطان الشعبي الأمين العام للجبهة في ذلك الوقت وبمعزل عن الرفاق الأساسيين في الجبهة. وأذيع بيان التوحيد بغتة لكي يوضع الأمين العام للجبهة وبقية الرفاق القياديين الأساسيين أمام الأمر الواقع.

ولأن طبيعة علاقتنا بعبدالناصر تُمكننا من التحدث معه بصراحة وجرأة فإننا قررنا عند الاجتماع به مصارحته بمشاعرنا وتوضيح موقفنا مما حدث ووجهة نظرنا في معالجة المسألة.

وتحدْثنا مع عبدالناصر في مسألة الخطوة التي تمت وسجْلنا إعتراضنا على إسلوب فرض الأمر الواقع.

وقد ارتحنا ضميرياً بعدما عرضْنا الأمر بصراحة وجرأة على عبدالناصر وأكدنا له رغبتنا في الحفاظ على علاقات جيدة معه.

أما جواب عبدالناصر فكان على ما أتذكر الآتي:

إنني لا أرى الموضوع بالحجم الذي ترونه. ولقد تحدثنا من قبل في موضوع الوحدة الوطنية ولم ألمس منكم أو من رفاقكم في اليمن أنكم ضد الفكرة. ويوم جاءني الاخوان (يقصد عزت سليمان ومساعديه) وقالوا إن هناك خطوة تنفيذية في طريق الوحدة الوطنية وان رفاقكم في اليمن مرحبون بها، رحبتُ من جانبي..

ولقد أوضحنا للرئيس عبدالناصر الموقف وقلنا له إنه اذا كان هنالك ثلاثة عناصر من التنظيم وافقوا على فكرة دمج الجبهة القومية بجبهة الأصنج فإن التنظيم ليس المؤسسات والهيئات المركزية واللجنة المركزية. وهذه كلها ضد الخطوة التي تمت وهنالك بعض العناصر محتَجَزة في القاهرة.

وركزنا أمام عبدالناصر على أننا لسنا ضد الوحدة لكننا ضد الأساليب الملتوية التي تُعتمد لتحقيق هذه الوحدة.

ورد علينا عبدالناصر بأنه لن يدع ما حدث يؤثر على العلاقة والثورة وانه

سيستفسر ويستوضح ويرد علينا. وكان واضحاً لنا انه سيسأل المخابرات التي نفَّذت الخطوة.

وبعد يومين ألتقينا مرة ثانية بعبدالناصر فقال لنا إن الصورة التي عرضناها شيء والصورة التي عرضها المعنيون (يقصد المخابرات) شيء آخر.

ومن خلال ما قاله لنا تبين ان المخابرات قالت لعبدالناصر رداً على استفسارته إن الأكثرية في الجبهة القومية راضية عن خطوة الدمج لأن التشتت في الفترة الأخيرة ولَّد أثاراً سلبية، وان الخطوة إستقبلت باستحسان من الأطراف المعنية وانها سليمة جداً وطنياً.

وأضاف عبدالناصر انه مادامت لنا وجهة نظر أخرى فمن الأفضل ان نسافر إلى اليمن ونستكشف الموضوع ونعود اليه برأي موحَّد.

ورحبنا بالفكرة لأنها تتيح لنا الوقوف على حقيقة الوضع. وسافرنا إلى تعز حيث القسم الأكبر من قيادات الجبهة القومية هناك، وبعد مناقشات اتضحت لنا صورة الموقف، وتبين لنا ان التناقض القائم بين الجبهة القومية والاجهزة المصرية، وهو تناقض حول الخط السياسي، جعل الاجهزة تطبخ مسألة الدمج وتعلنها بشكل مباغت. وخلال المناقشات بيننا وبين الرفاق، ركز رفاقنا في الجبهة القومية على أنهم أعضاء تنظيم وطني ثوري ويرفضون أن يعاملوا كمرتزقة أو كموظفين لدى أجهزة المخابرات المصرية. وحدثونا عن حالات احتكاك حدثت لأن تقييمهم للاصنج والمكاوي ولظاهرة السلاطين الوطنيين إصطدم بتقييم الاجهزة المصرية لهؤلاء.

وحاولت الاجهزة اقناعنا بأن خطوة الدمج مرضي عنها من الجماهير وان معارضيها هم فقط بعض المتعصبين من أعضاء الجبهة القومية. كذلك حاولت الاجهزة الايحاء لنا بأن الخطوة تمت ولا عودة عنها.

وكانت تلك المرة الاولى التي أشعر فيها ان هنالك قوى في مصر لها تأثيرها وان عبدالناصر ليس كل شيء. انه قوة أساسية له وزنه وتأثيره لكنه ليس كل شيء وان هنالك قضايا تفرض عليه الاجهزة التسليم بها. وبأمانة أقول إن عبدالناصر حاول إفهامنا ذلك تلميحاً. وعندما كنا نعرض بحماسة أمراً ما كان أحياناً يسرح

ويبتسم ثم يقول لنا ما معناه إنه ليس لديه آلة بازرار يضغط على الزر فينفِّذ كل شيء. وفي احدى المرَّات قال لنا: يا جماعة عندي هنا مشاكل وقصص ليس كل ما أقوله يتحقق.

بعدما كاد يقال لنا انكم لا أنتم ولا عبدالناصر تستطيعون اعادة النظر في خطوة الدمج التي حدثت، وجدْنا أنفسنا في مأزق حرِج. هل نرضى بالخطوة أم نرفضها؟ اذا رضينا بها فكأنما نسلِّم الثورة إلى قوى لا نطمئن اليها. واذا رفضنا فمعنى ذلك اننا سنصطدم بعبدالناصر وهذا غير معقول لسببين. الأول اننا سنفقد سنداً مهماً للثورة. والثاني هو أن التجارب التي حدثت أوضحت ما فيه الكفاية ان الذين اصطدموا بعبدالناصر انتهوا إلى الفشل، من الاحزاب الشيوعية إلى البعث، فعبدالناصر يشكِّل تياراً للجماهير العربية وأي اصطدام به ليس له أفق تاريخي.

كان هذا هو المأزق. غير موافقين على خطوة الدمج التي أُعلنت، وفي الوقت نفسه لا نريد الاصطدام بعبدالناصر. وقلنا للرفاق قبل أن نعود إلى القاهرة إن الأمر يحتاج إلى المزيد من التفكير وانه في هذه الفترة لا نقبل بالأمر الواقع ولا نستسلم له.

وقابلْنا عبدالناصر، وحرصْنا على ان نسجل بهدوء موقفنا أمامه. ولقد سجلناه.

وبعد ذلك تطورت المسألة وتشعبت التفاعلات وتمكن الرفاق في اليمن من إبعاد الأصنج والمكاوي.

الفصل العاشر

القطيعة

*** يُفهم من كلامك ان ما تحدثتَ عنه كان الاصطدام الاول بعبدالناصر والاصطدام كان يمنياً وليس فلسطينياً.**
كيف سارت العلاقات بينكم وبين عبدالناصر بعد هذا الاصطدام وهل قاد إلى اصطدامات اخرى؟

- لا يمكن تسمية ما حدث اصطداماً. انه ليس اكثر من تعارضات أو من خلافات اساسية في وجهات النظر.

وبعد فترة حدث تعارُض آخر يتعلق بخمسة من رفاقنا المصريين. كان تنظيم «حركة القوميين العرب» في مصر إستمر تنظيماً بسيطاً يعمل في اوساط الطلاب والمثقفين، وبعدما اصبح التيار الناصري يمثل المجرى التاريخي للامة العربية في تلك الفترة، وبعدما طُرحت فكرة «الحركة» العربية الواحدة اصبح هذا التنظيم جزءاً من الخط الناصري.

ونحن لم نكن نعرف كيف تنظر المخابرات المصرية إلى هذا التنظيم وما هي المعلومات المتوافرة لديها عنه. لكن عدم اصطدام التنظيم مع خط الثورة معناه انه لم تكن هنالك مشكلة بينه وبين الاجهزة المصرية.

وفي المؤتمر الذي عقدَته «حركة القوميين العرب» عام 1965 وقفنا امام مستقبل فرع مصر، خصوصاً بعدما قررنا النضال من داخل التيار الناصري وتثويره. ووجدْنا انه لا معنى لوجود تنظيم إلى جانب قيادة عبدالناصر وتنظيمه

ما دامت هناك ثورة وحدوية يقودها عبدالناصر وما دامت بدأت عملية التحول الاشتراكي.

وقررنا التشاور مع الرفاق المصريين في الأمر. وقلنا للرفاق ما معناه أن يوقفوا نشاطهم أو يندمجوا في العمل الناصري في الاتحاد الاشتراكي مهما كانت سيئاته وسلبياته. ووجدْنا لدى الرفاق المصريين الاقتناع نفسه. لكن بقيت مسألة الاسلوب الذي سنعلن فيه ذلك وكيف سنوضح الأمر لعبدالناصر.

وكان هنالك من يرى ان يقال لعبدالناصر أنه قبل تبلور هوية الثورة كان لنا تنظيم في مصر ما زال قائماً. وبعدما وصلنا إلى تحليل بضرورة العمل من داخل التيار الناصري اردنا ابلاغك ان رفاقنا سيحلون انفسهم كتنظيم ويساهمون معكم كأفراد ومن الممكن الاستفادة من تجربتهم حيث انهم امضوا عشر سنين يثقفون انفسهم سياسيا ويتابعون القضية الجماهيرية ويخلصون لها.

لكن عدداً من الرفاق تحفَّظ على هذه الفكرة بحجة ان عبدالناصر بعد أن يتبلغ القرار سيبحث مع الاجهزة. وعندما تصل المسألة إلى الأجهزة سيتولد نوع من الخشية والحذر.

وتولى الرفيق محسن ابراهيم ابلاغ عبدالناصر بالقرار. وكان جواب عبدالناصر أن يبحث محسن المسألة مع سامي شرف ويقدم الرفاق اليه لكي يحدد المواقع التي سيعملون فيها. واشاد عبدالناصر بالخطوة قائلاً إن التنظيم في مصر يحتاج إلى عناصر من هذا النوع ولا بد انه سيستفيد من كفاءتها وقدراتها.

ولأن الرفاق لديهم تجربة حزبية تتميز بالثورية والنضالية والديناميكية فإن المسؤولين في الاتحاد الاشتراكي اسندوا اليهم مسؤوليات، إلى درجة ان احد هؤلاء الرفاق وهو سمير حمزة اصبح في منصب بارز في منظمة الشباب التابعة للاتحاد الاشتراكي مثل منير اسكندر. إلاّ ان سمير حمزة هو الرمز الذي شق طريقه وتسلَّم مسؤولية فعلية وبارزة.

ورفاقنا المصريون لم يشكِّلوا عدداً كبيراً ولكنهم كانوا من النخبة، بينهم المهندس والطبيب، وكانوا عموماً مثقفين سياسياً.

وفي البداية كان الرفاق مرتاحين لوضعهم الجديد وغير نادمين على حل

التنظيم. ثم بدأت تواجههم متاعب ناتجة عن البيروقراطية والرخاوة ونوعية القيادات وعمق الهوة بين القيادات والجماهير.

وعندما عرضوا امامنا الواقع الذي لمسوه كان ردنا ان يواصلوا النضال لأنه لا بديل امامنا وامامهم، وانه يمكن مع الوقت تثوير التنظيم المصري ولا بد أن عبدالناصر سيتنبه إلى كل هذه المعوقات ويذللها.

وذات يوم تلقيتُ رسالة من عبدالناصر يدعوني فيها للحضور إلى القاهرة مع الرفيق محسن ابراهيم لأمر مهم. وأعتقد أن الرفيق هاني الهندي سافر معنا.

وقبل ان نسافر كنا سمعنا عن تناقضات حدثت داخل الاتحاد الاشتراكي وبلَغَنا أيضاً أن اعتقالات جرت، وأن أحد رفاقنا سابقاً إعتُقل. ولأننا واثقون من انفسنا ومن نوعية العلاقة بيننا وبين عبدالناصر قلنا: فلنذهب فوراً.

وفي العادة يتصل بنا سامي شرف مسبقاً لإبلاغنا ضرورة الاستعداد للقاء يتم خلال ايام مع عبدالناصر. ونحن من جانبنا نفعل الشيء نفسه. نتصل بسامي ونبلغه ان هنالك ما يوجب عقد اجتماع مع عبدالناصر. ويرد علينا سامي بعد أن يتحدد الموعد.

لكن الأمر خرج عن المألوف هذه المرة بالنسبة إلى طريقة الاتصال وسرعة انعقاد الاجتماع. ومن أجل ذلك قلنا إنه لا بد في الأمر قصة غريبة.

وفي القاهرة فوجئنا بلهجة مستجدة. قيل لنا ان علينا الانتظار إلى حين يسمح عبدالناصر باستقبالنا. هكذا فجأة تبدَّل أسلوب المعاملة!

وانتظرنا حوالى خمسة ايام على ما اعتقد من دون ان يحدَّد لنا موعد. ولم نقل للمسؤولين لنعرف سر هذا التبدل في المعاملة، ثم أُبلغنا بأن عبدالناصر سيستقبلنا.

ذهبنا اليه ونحن عارفون عنوان موضوع غضبه لكننا نجهل التفاصيل. وتم الاجتماع في جو لم نألفه من قبل.

وقال لنا عبدالناصر ما معناه: واجهنا قضية كادت تنسف كل علاقاتنا. فقد بلغتني ذات يوم واقعة تتعلق بالشبان الذين كانوا اعضاء تنظيمكم في مصر. وقيل لي انه قد تم اعتقال هؤلاء. وكلفتُ شعراوي جمعة التحقيق في الأمر. وقد

تأثرتُ جداً لما بلغني لكن الأمور اتضحت بعد التحقيق الذي أجراه شعراوي. ان الانسان يتضايق اذا أغضبه عدوه لكنه سيتضايق كثيراً اذا كان الغضب مصدره صديق. والحمد لله ان الأمور اتضحت. ولو تطابقت نتائج التحقيق على الرواية لما كان للصداقة والعلاقة بيننا أن تستمر.

وبعد هذا اللقاء وما سمعناه من عبدالناصر ازدادت علاقتنا به صلابة ولمسْنا حرصه على هذه العلاقة لأنه لم يأخذ بالتقرير الذي رفعَتْه اليه الاجهزة وإنما طلب من شعراوي جمعة التحقيق قبل ان يفاتحنا بالأمر.

وفي حينه فهمنا ان التقرير الذي رفعته الاجهزة إلى عبدالناصر يدور حول تحرُّك يقوم به «رفاقنا» المصريون وكيف انهم يعملون ضد النظام ويعاودون اتصالاتهم بـ«حركة القوميين العرب»، وانهم يُعِدون عملية تآمرية ضد عبدالناصر.

ولم تترك هذه الواقعة بصماتها على علاقتنا بعبدالناصر لكنها زادتنا اطلاعاً على واقع حال الاجهزة والبيروقراطية والرخاوة القائمة في الاتحاد الاشتراكي.

بعد هذا اللقاء مع عبدالناصر حدث لقاء آخر للبحث في مسألة اليمن بعدما انسحب رفاقنا من جبهة التحرير وطرحوا انفسهم من جديد في الساحة كجبهة قومية.

ولمجرد أن أعلن الرفاق ذلك كان تعليق المخابرات المصرية الذي قالوه لعبدالناصر إن هؤلاء سينتهون خلال اسبوع وانه ليس في إمكانهم الإستمرار ما دامت مصر تساند الأصنج والمكاوي مالياً وسياسياً وبالسلاح. وجاءت مناسبات تأكد فيها ان جبهة الاصنج والمكاوي ليست شيئاً أمام الجبهة القومية.

ولأن عبدالناصر ذكي ومخلص ومستعد لمراجعة نفسه فإنه وعد بمعالجة الأمر. أما الجمهورية العربية المتحدة فلم تكن على استعداد للتخلي عن المكاوي والأصنج، والذي اختارت الحل الذي تَمَثَّل بعد ذلك في اتخاذ موقف اكثر ليونة تجاه رفاقنا في عدن.

*** هل حرصتم على معرفة الجهة التي كانت تسعى لضرب العلاقات بينكم وبين عبدالناصر، والتي تقول إنها لفقت مسألة العملية التآمرية؟**

– أعتقد أن عناصر في المخابرات المصرية كانت وراء ذلك. وفي حين كان البعض يرى ان هذه العناصر تعمل للاستخبارات المركزية الاميركية، إلاَّ ان تحليلي للأمر مختلف. انني أرى أن هذه العناصر من بنية ذهنية وطبقية معيَّنة. فعندما يدخل المكاوي أو الاصنج بالبدلة وربطة العنق على واحد من هؤلاء ويقول له يا سيادة البيه فإنه يرتاح له، ولن يرتاح لعبدالفتاح اسماعيل أو علي عنتر أو قحطان الشعبي الذين كانوا ينتعلون الصنادل ويقولون له انتم تكذبون علينا. تقولون شيئاً وتفعلون شيئاً آخر.

ومن الطبيعي ان يتولَّد حقد على رفاقنا بسبب اسلوبهم في الكلام ناهيك عن عدم اكتراثهم لمسألة البدلة وربطة العنق. وعندما يحقد مثل هذا العنصر في المخابرات يصبح طبيعياً في أي تقرير يرفعه الإساءة إلى موقف المخلصين والثوريين والإشادة بموقف الإنتهازيين والمتملقين. ولأن عبدالناصر لا قدرة له ولا وقت لرؤية الأمور كلها بوضوح، فإنه من الطبيعي كأي إنسان أن يتأثر بما يقال من المحيطين به.

وانا كمسؤول عن تنظيم أرى الأمور أحيانا من خلال رفيق ما إلى ان يثبت العكس. وعندما تتشابك الأمور أضطر لإستكشاف الموقف بنفسي فأجد الصورة مختلفة عن تلك التي رسمها الرفيق الذي عرضها عليَّ.

*** قبل حرب 1967 كانت العلاقات جيدة بينكم وبين عبدالناصر. هل توقعتم حدوث الحرب. وهل ناقشتم الموقف معه. وهل أنه كان متخوفاً من المعركة؟**

وأين كنت عندما قامت حرب 1967، وهل كنت مقتنعاً بالبيانات التي بثتها الاذاعات المصرية؟

وهل بصفة كونك كنت قريباً من عبدالناصر فوجئت بالنتيجة التي انتهت اليها الحرب؟

– قبل أن تبدأ المعركة بأسابيع لاحظْنا حرص الرئيس عبدالناصر على توجيه أسئلة إلينا حول عقلية القيادة الاسرائيلية. في إحدى المرات طلب منا ان نحدِّثه اذا

كنا نملك معلومات عن نفسية موشى دايان وشخصيته وتاريخه. وقد نشطنا حيال ما يريده عبدالناصر.

ولم يلمس أي من الرفاق الذين اجتمعوا إلى عبدالناصر في تلك الفترة انه متخوف من نتائج المعركة. وكنا واعين إلى انه ليس في صدد معركة تستهدف تحرير فلسطين.

وعندما نشبت حرب 1967، كنت في بيروت. وحتى اليوم الثاني كنت مقتنعاً بما تبثه الاذاعات المصرية من بيانات عسكرية، وفي الوقت نفسه كنت غير مقتنع. ولعل ثقتنا البالغة بعبدالناصر هي التي جعلتنا في اليومين الأولَيْن غير مصدقين ما تعلنه اسرائيل. وكنا نقول لا بد ان هنالك خطة عسكرية سينفِّذها عبدالناصر في الوقت المناسب لإرغام الاسرائيليين على التراجع.

وفي اليومين الأولَيْن من الحرب عادت بنا الذاكرة إلى ما كان كتبه محمد حسنين هيكل في «الاهرام» عن الهجوم والدفاع وكيف ان مصر التي لا تستطيع توجيه ضربة هجومية يمكنها امتصاص الضربة الاولى التي توجَّه اليها.

وفي تقديري ان عبدالناصر لم يكن يتوقع ان تكون النتائج بالشكل الذي حدث. ربما كان يعتقد أنه لن يستطيع تحقيق انتصار، لكن في أسوأ الظروف يمكن حدوث نوع من التكافؤ.

ولعل عبدالناصر لم يقف تماماً على ما فعلته البيروقراطية والامتيازات التي أُعطيت للضباط والاسترخاء والمبالغات في جيشه.

وبعد النتائج التي انتهت إليها الحرب قلنا انه مع احترامنا وتقديرنا لعبدالناصر إلاَّ إنه من الواجب وضع عواطفنا جانباً والبدء في عملية تحليل لما حدث. فهناك سبع عشرة سنة من العمل الوطني في مصر أدت إلى هزيمة مفجعة، وهذا يحتاج إلى تحليل علمي.

والمرة الاولى التي قابلتُ فيها عبدالناصر بعد الهزيمة كانت بعد خروجي من السجن في سورية في تشرين الثاني/ نوفمبر 1968. وكنت وأنا في السجن عرفت إن عبدالناصر مهتم بأمر اعتقالي وبأمر عائلتي وانه كان يسأل عما إذا كانت العائلة محتاجة إلى شيء أو تود الإقامة في مصر ما دمت أنا معتقَلاً. وهذا الموقف من جانب

عبدالناصر ترك في نفسي أثراً كبيراً جداً، لكن ذلك لم يمنع عندما قابلته يوم 12 تشرين الثاني/ نوفمبر أي في اليوم الثاني من وصولي إلى القاهرة أن أقول له وجهة نظري من دون إيذاء مشاعره. وعرضتُ من دون استفزاز بعض الآراء التي تتناول مسألة التنظيم ودور الجماهير والكفاح المسلح.

وتجدر الاشارة إلى إنَّ منطلقات حديثي مع عبدالناصر كانت البيان الذي أصدرَتْه «حركة القوميين العرب» بعد حوالى شهر ونصف الشهر من وقوع الهزيمة وتضمَّن نقداً للتيار الناصري في ضوء نتائج الحرب.

*** لقد انتقدتم التجربة لأن الهزيمة وقعت، عِلْماً بأنكم كنتم قريبين من عبدالناصر ومقربين منه وقررتم العمل في المجرى الناصري على رغم قناعاتكم بالسلبيات التي تقول إنها قادت إلى الهزيمة. أليس هذا نوعاً من التناقض؟**

- أحب أن أؤكد أن البيان الذي اصدرناه لا يحمل فقط نقداً لتجربة عبدالناصر وإنما لـ«حركة القوميين العرب» أيضاً. واذا أردنا ان نكون جريئين وصريحين وموضوعيين فإننا ندين موقفنا الذي اتسم بالمراهنة على التيار الناصري. وهذا الموقف اتضح لنا خطأه عام 1966 بعض الشيء، وإتضح كاملاً بعد هزيمة 1967.

وهنالك نقطة اخرى مهمة، وهي اننا في خلال ثماني سنوات من العلاقة بيننا وبين الجمهورية العربية المتحدة لم يكن في ذهننا عبدالناصر كشخص، وإنما الإخلاص للقضية والجماهير. ولقد بذلْنا جهداً كبيراً لكي نفصل بين العلاقة الشخصية والعمل السياسي. واستمرت العلاقة الشخصية قائمة حتى بعد الهزيمة وان كانت حدثت تعارضات في وجهات النظر. وعلى سبيل المثال فإن صدور بيان عن «الحركة» بعد شهر ونصف الشهر من وقوع الهزيمة ينتقد التيار الناصري لم يحل دون ان يهتم عبدالناصر بأمر إعتقالي في سورية وبأمر عائلتي. كما اننا في اللقاء الأول معه بعد الهزيمة على إثر خروجي من المعتقَل في سورية لم يسألني لماذا أصدرنا البيان ولا أنا توقفتُ عند بعض الجزئيات. وخرجتُ من الاجتماع

باتفاق على استمرار التعاون. قلت له انني متوجِّه إلى الأردن. وقال لي وأنا اودِّعه ما معناه: نحن مع بعض، انتقدوني ما شاء لكم الانتقاد لكن يجب ان تتأكدوا من ان القضية أكبر منا جميعا ويجب أن نكون في مستوى المسؤولية. وكن واثقاً انني سأساند أي بندقية توجَّه إلى إسرائيل.

أتذكَّر ان عبدالناصر أبدى لي إستعداده لتدريب مقاتلين. وقد حدث ذلك بالفعل. ففي مطلع 1969 ارسلْنا إلى القاهرة عناصر لكي تتدرب. وكان هؤلاء يعودون مدرَّبين ومعهم السلاح الذي قدمته مصر إليهم.

*** اذا كان الأمر كذلك فما الذي جعل العلاقات تصل بينكم بعد ذلك إلى الفتور فالتفجر؟**

- الذي حدث هو أننا في حزيران/ يونيو 1969 اصدرنا ما سمي «البرنامج السياسي للجبهة» واتفقنا على مناقشة البرنامج قبل ان نطبعه ونذيعه، وتضمَّن البرنامج اشارة إلى عبدالناصر وتحليلاً لوضعه.

وبينما كان البرنامج في طور النقاش ولم يُطبع بعد وإنما كانت هنالك بضع نسخ منه مطبوعة بطريقة «الستانسل» فوجئنا بأن القيامة قامت علينا في مصر. ثم تبيَّن لنا ان احدى النسخ القليلة هذه اوصلها احدهم إلى المخابرات المصرية.

ولما كان للمخابرات المصرية علينا ثأر قديم بسبب اليمن الجنوبي فإنها رفعت إلى عبدالناصر خلاصة عن البرنامج الذي يقع في حوالي ستين صفحة وارفقتها بأجواء من التهويل وقالت في خلاصتها اننا نشتم عبدالناصر ولو ان عبدالناصر قرأ البرنامج كاملاً والذي كنا سننشره لما كان تَولَّد عنده انطباع المتسائل: لماذا تسير الأمور بهذا الشكل؟

ولكن المخابرات المصرية لم تكن أمينة في تلخيصها. ولو أنها كانت كذلك لكان عبدالناصر وجد في البرنامج ما يشير إلى أرضية اللقاء على رغم الخلافات. ففي البرنامج قلنا إننا لا نستطيع إقامة علاقات وفاق مئة في المئة مع الأنظمة الوطنية كما اننا لا نستطيع جعل الخلافات تصل إلى مئة في المئة. وقلنا إن العلاقة التي ستكون

بين «الجبهة الشعبية» والأنظمة الوطنية في تلك الفترة هي علاقة تحالُف وصراع. التحالف حول الأمور التي نختلف حولها.

ولو تسنى لنا اللقاء بعبدالناصر ومصارحته لما كان للغضب إن يصل إلى ذلك الحد، خصوصاً إن الذي نعرفه عن عبدالناصر هو رجاحة العقل، وأنا متأكد إنه لو إلتقيناه وحدثناه بالبرنامج الذي أصدرناه لكان قال لنا ان من حقنا أن نقول ما قلناه وليس من حق أحد أن يمنعنا عن قول ذلك.

ونتيجة للتقرير المشوَّه والتلخيص المشوَّه للبرنامج الذي كنا في صدد إذاعته، إتخذ عبدالناصر خطاً آخر تجاهنا. وأوقف المصريون برنامج دورة تدريب ثالثة لعناصر من «الجبهة الشعبية». وعندما راجعناهم في الأمر قالوا إنه ليس هنالك طائرة لكي تقلهم إلى مصر. وفي مرة ثانية قالوا إن مكتب التدريب مقفل.

ومرَّت فترة والموقف على حاله. وذات يوم قال لي أحد الأصدقاء إن أمام عبدالناصر صورة غير جيدة عنَّا وهي التي جعلت التدريب يتوقف واسلوب التعامل يتبدل. ومع الأسف الشديد كان ذلك بداية قطع علاقتنا بعبدالناصر واستمرت العلاقة مقطوعة حتى وفاته.

*** ما أعرفه حول هذا الموضوع هو أن الرئيس عبدالناصر بعد ما قرأ الملخص الذي رُفع إليه عن برنامجك شعر أنه أصيب في كبريائه، وإن تعليقه الأول على ذلك كان انه لن يعطي «الجبهة الشعبية» بعد اليوم شيئاً. لن يعطيها حتى فانيلة، أي قميصاً داخلياً!**

هل هذه الواقعة صحيحة؟ وهل شعرت بحالة ندم بعدما أُعلنت وفاته، لأن حليفاً كبيراً وصديقاً مثالياً لكم توفي وهو يشعر بأنكم جرحتم كبرياءه؟

– من الطبيعي أن يشعر عبدالناصر بانه جُرح في كبريائه ما دام إطَّلع على الملخص، في حين أن مثل هذا الأمر ما كان ليحدث لو انه قرأ البرنامج. وأنا بما أعرفه عنه أقدِّر رد فعله بعد قراءة ملخص برنامج، تعمَّدت فيه المخابرات المصرية ان تسيء إلى العلاقة التي بيننا وبين عبدالناصر. ولقد إنتابني حزن كبير

عندما بلغني نبأ وفاته، وطغت المشاعر الإنسانية على اي شيء ووجدتُ في رد الفعل الذي شهدته بيروت ذلك اليوم ما يؤكد أن الفراغ الذي سيتركه عبدالناصر بوفاته سيكون كبيراً جداً، ولن يكون في قدرة القوى الثورية ملء هذا الفراغ، وإنما سيبادر اليمين في محاولة لملء الفراغ.

كنا نختلف مع عبدالناصر ولكننا كنا نحترمه. وكنا ننتقده لكننا في الوقت نفسه نشعر بإخلاصه للقضية.

*** هل إن العناصر التي تم تدريبها في مصر لم تخضع خلال فترة التدريب لتوجيه سياسي كان له أثره بعد عودتها وتمركزها في القواعد؟**
وهل حاولتم بعد وفاة عبدالناصر تجديد العلاقة بمصر خصوصاً إن سامي شرف إستمر لفترة رجلاً قوياً داخل النظام. والعلاقة التي بينكم وبينه كان من شأنها المساعدة على فتح صفحة جديدة في التعامل؟
وثمة ملاحظة وهي طريقة أو نبرة حديثك عن عبدالناصر على رغم انه مات وعلى رغم ان العلاقة بينكم وبينه انقطعت قبل وفاته. إنني ألاحظ أنك ما زلت تتحدث عنه بكثير من التأثر. ما سِرْ ذلك؟

- قبل وفاة عبدالناصر بفترة وبالتحديد خلال الصدام الدامي بين النظام الأردني والمقاومة الفلسطينية كان لنا في عمّان لقاء مع الدكتور حسن صبري الخولي الممثل الشخصي لعبدالناصر. وفي هذا اللقاء قال الدكتور الخولي إنه من غير المعقول أن تستمر العلاقة بيننا وبين عبدالناصر على ما هي عليه من توتر وإنه يتمنى لو تعود العلاقة كما كانت، أي اتفاق حول نقاط الالتقاء ولا اتفاق حول النقاط التي لا يتوحد الرأي في شأنها. وقلنا للدكتور الخولي إننا على أتم الإستعداد لإستئناف العلاقات كما كانت عليه مع عبدالناصر.

ورد الخولي بأنه سيتحدث في الموضوع مع الرئيس عبدالناصر إذا نحن فوضناه وباركنا مسعاه.

كذلك أبدينا ألمنا الحقيقي من هذه القطيعة أمام شاب يحبنا ويحب عبدالناصر.

وقد جاء مرة إلى عمّان وكان لنا لقاء به في السفارة المصرية.

وقبيل وفاة عبدالناصر أمضيت أكثر من شهر في جولة في كوريا والصين وكنا في صدد ترتيب لقاء نعيد به العلاقة لولا أن عبدالناصر توفي.

ولقد فاجأنا موت عبدالناصر. لقد كان يحدِّثنا خلال إجتماعاتنا به عن الآلام التي يشكو منها لكننا لم نتصور أن وضعه الصحي دقيق إلى هذه الدرجة.

وإلى الآن، ودائماً كلما أتيتُ في الحديث على ذكر عبدالناصر، فإنني أتذكَّر إنساناً عزيزاً جداً كانت له في نفسي مكانة الأب أو الأخ الأكبر أو الصديق العزيز. ولعل في ذلك جواباً عن التأثر الذي لاحظته أنتَ ويلاحظه كثيرون في لهجتي عندما يأتي ذكر عبدالناصر.

وبعد وفاة عبدالناصر حدثت مبادرات تستهدف تعزيز العلاقة مع النظام المصري الجديد الذي كان سامي شرف وشعراوي جمعة وعلي صبري يشكلون قوة فيه. والثلاثة أصدقاء لنا ويعرفون العلاقة التي كانت بيننا وبين عبدالناصر. ويعرفون أيضاً أن عبدالناصر ونحن كنا نتمنى ألاَّ تصل العلاقة إلى التوتر الذي وصلت اليه.

وحدث بعد خروج الرفيق تيسير قبَّعه من سجون إسرائيل أنه قد يقابل سامي شرف وشعراوي جمعة ويريد الوقوف مني على خطنا تجاه القاهرة.

وقلت للرفيق تيسير إننا لا نتكلم بلهجتين وإننا نريد إقامة علاقات مع الجمهورية العربية المتحدة شرط ألاَّ تحد هذه العلاقة من حريتنا في إبداء وجهة نظرنا المستقلة: «نريد اقامة علاقات على أساس التحالف والنقد في الوقت نفسه من دون ان يؤدي النقد إلى عملية صراع لا نرضى به. نريد علاقة لا يكون ثمن السلاح الذي نحصل عليه من مصر هو عدم مخالفة مواقفها السياسية اذا كان لا ينسجم مع خطنا».

وقابل الرفيق تيسير في القاهرة سامي شرف وشعراوي جمعة. واتفقنا على أن يكون الاجتماع بداية إجتماعات لاحقة تمهد لعودة العلاقات. لكن الرئيس السادات ضرب الإثنين وكثيرين معهم ومع هذه الضربة توقَّف كل شيء. ومع الرئيس السادات لم تحدث محاولات أو مبادرات لنوع من العلاقة.

*** إستكمالاً لموضوع علاقتكم بعبدالناصر، أريد رأيك في الفرضية الآتية: لو أن عبدالناصر كان ما زال حياً فما هو شكل الوضع في المنطقة؟**

- الواقع انني فكرت كثيراً في هذا الأمر. وفي تقديري أن عبدالناصر كان في إعداده السريع للجيش يُعد العدة لمعركة. ولا أتصور أنه كان سيتنازل عن أرض 1948 مقابل 1967. وفي تقديري أيضاً إنه كان سيواصل النضال لإسترداد أرض 1967 من دون أن يدفع الثمن، أي من دون أن يسدل الستار على عدوان 1948.

إنني أعرف عبدالناصر جيداً ولا أعتقد أنه يمكن أن يسجل في تاريخه إنه أول حاكم عربي إعترف بوجود إسرائيل.

الفصل الحادي عشر

الميـلاد

*** ما هي الظروف التي وُلِدت فيها «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» ولماذا تقرر إنشاؤها. وما هو التصور الذي عندكم للموقف عندما قررتم إنشاء الجبهة؟**
وأين وُلِدت «الجبهة» وماذا كانت منطلقاتها في البدء. وبكم عنصراً بدأت وما هي نوعية السلاح الذي استخدمَتْه العناصر؟
وهل نُفِّذت عمليات قبل أن تعلنوا عن قيام الجبهة؟

- موضوع «الجبهة الشعبية» مرتبط أيضاً بـ«حركة القوميين العرب»، ولا يمكننا الفصل بينهما، كأن نقول إن «الجبهة» تجربة جديدة كلياً وليس لها أي علاقة من قريب أو بعيد بـ«الحركة».

واذا اردنا ان نتبع جذور «الجبهة» علينا العودة إلى «حركة القوميين العرب» والعمل الفلسطيني ضمنها، وكيف نظرت «الحركة» إلى العمل الفلسطيني ومتى بدأت تُبلور العمل الفلسطيني المسلَّح، لأن ذلك إذا جاز التعبير هو جنين «الجبهة الشعبية».

إن إنشاء «حركة القوميين العرب» مرتبط بنكبة 1948. وبعد فترة من الوقت إتخذت طابعاً عربياً أكثر شمولاً، ولم تعد القضية الفلسطينية هي الحلقة المركزية الأكبر والأوضح بالنسبة إلى عمل «الحركة».

عام 1951-1952 بدأنا ندفع بمجموعات إلى أراضي فلسطين المحتلة تضرب أهدافاً إسرائيلية وتنظِّم عرب فلسطين في الداخل. ولم ننجح بسبب عدم قدرتنا

من جهة وموقف غلوب باشا من جهة أخرى.

في المقابل كان هنالك ترابُط في ذهننا بين الأوضاع العربية وتحرير فلسطين فإندمجنا في حركة التحرر الوطني العربي من العام 1954 حتى العام 1961. يعني أننا بعد سنتين من محاولة القيام بعمل مسلح في فلسطين المحتلة امضينا ست سنوات كحركة قوميين عرب نعمل لفلسطين من خلال عملنا العربي، ومن دون تنظيم للساحة الفلسطينية. ولم نفكر في هذه الفترة بتأسيس حركة تحرر وطني فلسطيني قائمة بذاتها، أو تكون فرعاً من فروع «الحركة».

بعد الانفصال بدأنا التفكير بعمل فلسطيني جاد وملموس. وقبل الانفصال حَمَلتنا ثورة الجزائر على طرح السؤال الآتي: لماذا لا يبادر الشعب الفلسطيني معتمداً على نفسه لتحرير وطنه مسانَداً من الأمة العربية بدل أن يترك المسألة للأمة العربية؟

لقد كنا نعلِّق أهمية كبرى على موضوع الوحدة بين مصر وسورية على أساس أن هذه الوحدة ستتسع وتحرر فلسطين وحدث الإنفصال لينسف آمالنا هذه.

وأمام تجربة الثورة في الجزائر وقفنا نتساءل: إن الشعب الجزائري تسلَّم قضيته بنفسه وكافح من اجلها ونال تأييد الأمة العربية. وماذا لو فعل الشيء نفسه الشعب الفلسطيني بدل هذا الاسترخاء؟

وبعد الانفصال وانتكاس الامل في الوحدة بدأنا نلاحظ في المخيمات نمو ظاهرة جديدة. وفي اي مخيم في لبنان أو سورية، بل ووسط أي تجمُّع فلسطيني في العالم العربي وحتى في العالم الخارجي، كنا نلاحظ نمو هذه الظاهرة، فقد بدأ كل فلسطيني يتساءل عن دوره في العمل الفلسطيني.

وفي العام 1961-1962 كان في الساحة الفلسطينية حوالى 36 تنظيماً ليست «الجبهة الشعبية» بينها وليست «فتح» بينها أيضاً.

وعلى رغم ان هذه التنظيمات لم تقم بعمل مسلح إلاَّ أن مجرد وجودها كان يعكس رغبة الفلسطينيين في عمل شيء يعيد لهم وطنهم أو على الاقل يحرك قضيتهم بالإضافة إلى ان وجود هذه التنظيمات مظهر للكفاح الفلسطيني المتواصل.

حيال ذلك بدأنا في «حركة القوميين العرب» نناقش المسألة من أكثر من زاوية.

هل نستمر في التعاطي مع القضية الفلسطينية من خلال نضالنا كحركة قوميين عرب، أم إنه آن الأوان لمراجعة موقفنا والتفكير بعمل فلسطيني ضمن «حركة القوميين العرب». ان هنالك فرعاً لـ«لحركة» يعمل في الأردن وآخر في لبنان، وهنالك فرع في سورية وفرع في الكويت وفرع في اليمن الجنوبية. لماذا لا نُحدث فرعاً فلسطينياً يعمل في الساحة الفلسطينية ويُعد للنضال الفلسطيني؟

وانتهى الأمر إلى اتخاذ خطوات محدودة بالنسبة إلى هذا الموضوع، وبسبب عدم وجود أفق لنضال فلسطيني مسلح مطروح امامنا اتخذنا اجراءات تنظيمية سريعة. فصلْنا الأعضاء الفلسطينيين من فروع «الحركة» في لبنان والكويت وسورية ووضعناهم في قطاع تنظيمي معيَّن ليتمكنوا من تلقِّي مادة تثقيفية فلسطينية تمهد لإعدادهم عسكرياً.

حتى الآن أصبح هنالك قيادة فلسطينية وهذه القيادة هل لديها أعضاء؟ أي هل هنالك مثلاً ألف فلسطيني يمتثلون لهذه القيادة؟ الجواب: لا. لأن كل عضو فلسطيني في أي فرع من فروع «الحركة» استمر منتسباً لفرعه، مع وجود روابط خاصة له بالقيادة الفلسطينية، بمعنى انه اذا قررت القيادة الفلسطينية تجنيد عدد من الرفاق لتظاهرة لسطينية في سبيل القضية الفلسطينية أو لتسجيل موقف أو القيام بنشاط معيَّن، فإنها تضع البرنامج ويتولى تنفيذه التنظيم الفلسطيني المرتبط بفروع «الحركة».

إستمر الوضع على هذه الحال حتى مؤتمر القمة العربي الأول الذي تقرر فيه إنشاء «منظمة التحرير الفلسطينية»، وعلى رغم أنها لم تأخذ شكل كفاح مسلّح، إلاَّ أن القضية الفلسطينية بعد قرار إنشاء منظمة التحرير بدأت تنمو. وهنا خطونا من جانبنا خطوة تنظيمية أخرى. قررنا فصل الأعضاء الفلسطينيين من الفروع التي ينتمون اليها وان تصبح القيادة الفلسطينية مسؤولة عنهم. وقررنا أيضاً تفرُّغ القيادة الفلسطينية للعمل الفلسطيني، وأن تعطي القيادة المركزية لـ«حركة القوميين العرب» الكثير من جهدها للقضية الفلسطينية. وقررنا كذلك البدء بالإعداد للكفاح المسلح الفلسطيني وهو ما سبق وبحثناه مع عبدالناصر.

وفي العام 1964 بدأنا خطوة جديدة. ولم تعد هنالك لجنة قيادية للعمل

الفلسطيني وإنما أصبح هنالك فرع فلسطيني وقيادة فلسطينية مهمتها العمل الفلسطيني والتهيئة للكفاح المسلح في الساحة الفلسطينية وإعداد مقاتلين وتدريبهم. وفي العام 1964 بدأنا العمليات. تسلل عدد من الرفاق، وسقط لنا الشهيد خالد وهو الشهيد الأول من الفرع الفلسطيني لـ«حركة القوميين العرب». وقد استشهد في الجليل، وهو من العناصر التي تم تدريبها في مصر في عهد الوحدة مع سورية.

ومن المهم الاشارة هنا إلى أننا حاولنا اقامة نوع من التحالف مع «فتح» قبل أن تبدأ عملياتها العسكرية وان نقوم بعملية مشتركة. ولقد بدأت «فتح» العمليات بينما كانت وجهة نظرنا هي اختيار ظروف معيَّنة يعلَن فيها بدء الكفاح المسلح.

أصبح عملنا الفلسطيني أكثر وضوحاً واتخذ الفرع الفلسطيني اسم «شباب الثأر». تزايد الاستعداد العسكري واتسعت دائرة النشاط الجماهيري ولم يتوقف تثقيف الجماهير فلسطينياً. ومع ذلك إستمر العمل الفلسطيني ظاهرة داخلية تنظيمية، ولم يصبح ظاهرة جماهيرية، أو ظاهرة تاريخية إلاَّ بعد حرب 1967. لم تعد هنالك ضوابط للعمل الفلسطيني وأصبح لا بد من العمل لأن الظروف أصبحت مهيأة، كذلك نفسية الجماهير. وأعطانا انهيار الجيش الأردني فرصة لتنمية العمل الفلسطيني.

وبدأنا ننظر بجدية إلى مسألة العمل الفلسطيني المسلح. وأنا شخصياً من الذين كانوا يرون ان الجهد الرئيسي يجب أن ينصب في الساحة الفلسطينية.

ومن هنا بدأ التركيز الذي قاد إلى تأسيس «الجبهة الشعبية». وقبل أن نؤسس «الجبهة» سعينا إلى إنشاء تنظيم موحد يضم التنظيمات الخمسة القائمة في تلك الفترة والتي كانت تفكر جدياً في مسألة الكفاح المسلح. وهذه التنظيمات هي: «فتح» و«الصاعقة» التي كان إسمها «طلائع حرب التحرير الشعبية»، و«جبهة تحرير فلسطين» المسؤول عنها أحمد جبريل، و«شباب الثأر» التنظيم الفلسطيني لـ«حركة القوميين العرب».

ولا بد من الاشارة هنا إلى تنظيم آخر اسمه «أبطال العودة» كانت لنا علاقة به. فقد كانت منظمة التحرير تفكر بإنشاء تنظيم مسلح غير جيش التحرير. واتصلت

بمجموعة من الشبان أعضاء في «حركة القوميين العرب» أو أصدقاء لها. ويومها قلنا لهؤلاء الشبان أن يتعاونوا مع المنظمة. وكان تنظيم «أبطال العودة» بدأ الكفاح المسلح قبل 1967 وسقط منه بعض الشهداء بينهم محمد اليماني شقيق رفيقنا أبوماهر (أحمد اليماني).

حاولنا مع التنظيمات الخمسة توحيد العمل المسلح. وعُقدت اجتماعات في دمشق كان يحضرها مندوباً عن منظمة «شباب الثأر» الدكتور وديع حداد. وأنا حضرتُ اجتماعاً أو إثنين من هذه الاجتماعات لكن الدكتور وديع تابعها حتى النهاية.

وفي الاجتماعات كانت «فتح» ترى أنها ستبدأ العمل على أن يكون اللقاء على أرض المعركة. وحيال ذلك وافقنا واستمرت المحادثات بين تنظيم أحمد جبريل وتنظيم «أبطال العودة» وتنظيم «شباب الثأر» من أجل القيام بعمل موحد.

وتم وضع برنامج سياسي ولائحة علاقات داخلية. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1967 أصبحت التنظيمات الثلاثة مستعدة لمباشرة العمل العسكري. وكانت «فتح» بدأت العمل العسكري قبل ذلك بحوالي ثلاثة أشهر. وتجدر الاشارة إلى أن فتح بدأت نشاطها عام 1965 لكن الموجة الأخرى من الكفاح المسلح داخل فلسطين المحتلة قامت بها في 15 أيلول/ سبتمبر 1967.

يوم 10 كانون الأول/ ديسمبر 1967 أصدرنا بياناً سياسياً يعلن قيام «الجبهة الشعبية» لتحرير فلسطين التي تضم التنظيمات الثلاثة، وهو البيان التأسيسي، وبدأنا على الفور عملياتنا العسكرية داخل فلسطين المحتلة، وعلى هضبة الجولان.

*** هل نوقشت التسمية ومن هو صاحبها، وماذا تعني الكلمات التي يتألف منها الاسم؟**

– هذه المرة نوقشت التسمية عكس الذي حدث بالنسبة إلى تسمية «حركة القوميين العرب». وكانت هنالك بضع تسميات. كل تنظيم إقترح تسمية وأنا بإسم تنظيم «شباب الثأر» اقترحتُ أن تكون التسمية «الجبهة الشعبية لتحرير

فلسطين» وبعد مناقشة اتفقنا على هذه التسمية.

والتسمية في أي حال مدروسة بعناية. كان لا بد من تضمين التسمية ما يشير إلى السياسة فكانت كلمة «الجبهة» وكان من الضروري اعطاء التنظيم الموحَّد الطابع الطبقي الذي يوضح استناده إلى طبقات الشعب الكادحة فكانت كلمة «الشعبية». وكانت الكلمتان المتبقيتان وهما «لتحرير فلسطين» لتحديد الهدف السياسي الرئيسي لهذا التنظيم السياسي.

ولا يمكن النظر إلى «الجبهة» في تلك الفترة بالنظرة نفسها اليها اليوم. يومها لم تكن تنظيماً ثورياً كما هي الحال بعد ذلك، وهذا يفسر إشراك عدد من الشخصيات الوطنية الأردنية وبعض الناصريين في الأردن في الجبهة. وهؤلاء المستقلون دخلوا في «الجبهة» كفريق رابع مع الفرقاء الثلاثة الآخرين: تنظيم «شباب الثأر» وتنظيم «أحمد جبريل» وتنظيم «أبطال العودة». وبعد ذلك واجهت «الجبهة» انشقاقات ومشاكل واحتفظنا بالتسمية.

*** متى حدث الانشقاق الأول ولماذا؟ ومتى حدثت بقية الانشقاقات ولماذا؟**

- الانشقاق الأول كان خروج تنظيم أحمد جبريل والمستقلين. وخروج تنظيم جبريل الذي أنشأ «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة»، جاء نتيجة خلافات في وجهات النظر حول قضايا سياسية وتنظيمية وعسكرية. وبدلاً من استعمال كلمة «خلافات» يمكن القول إن ما حدث كان تبايناً في الإجتهادات. وعلى سبيل المثال كنا نرى أن التنظيم العسكري يبنى بطريقة معيَّنة فيرد جبريل بأن الطريقة التي يرتأيها هي الافضل. وهكذا. وبالنسبة إلى المستقلين من الأردن قالوا أنهم يخالفوننا الرأي في نظرتنا إلى النظام الأردني الذي نعتبره جزءاً من المعسكر المعادي... وهكذا.

واذا سئلتُ الآن: هل هذا مبرر للانشقاق، فإني أقول: لا. فنحن جبهة وليس مفروضاً ان تكون كل الآراء متفقة. المطلوب في طبيعة العمل الجبهوي هو الحد الأدنى من التفاهم.

وكان يمكن معالجة التباين بالحوار الديمقراطي وبالتفكير الجبهوي، بمعنى لا أفرض عليك شيئاً ولا تفرض عليَّ شيئاً. الأمور التي لا نلتقي حولها نتركها جانباً ونلتقي حول الأمور المتفاهَم عليها. اذا كانت هنالك قضايا تستوجب إصدار بيان سياسي مثلاً فإننا نُصدر البيان وقد تضمَّن النقاط المتفق عليها من الجميع على أن يحتفظ كل فريق لنفسه برأيه الخاص في القضايا التي لا يحدث اجماع في الاتفاق حولها. واذا كان تنظيم «شباب الثأر» له رأي ما في اسلوب معاملة المقاتلين وامكان بناء القواعد لهم يختلف عن رأي تنظيم جبريل فهذا يمكن حله بأن يتصرف كل تنظيم حيال مقاتليه بالطريقة التي يراها مناسبة من دون أن يؤدي ذلك إلى انشقاق. فالنقطة الاساسية هي ضرورة التعاون والقتال مشتركين ضد اسرائيل. وهذه النقطة لا خلاف حولها.

من المؤسف أن الانشقاق حدث لأن كل فريق كان يريد تسيير «الجبهة» سياسياً وتنظيمياً وعسكرياً وفق وجهات نظره وأفكاره، من دون مراعاة طبيعة العمل الجبهوي.

ثم حدث الانشقاق الثاني في شباط/ فبراير 1969. وهنا تجدر الاشارة إلى أنه بعد خروج تنظيم جبريل والمستقلين أصبحت «الجبهة» مؤلفة من تنظيم «شباب الثأر» وتنظيم «أبطال العودة». ولما كان التنظيم الثاني يضم عناصر هي في الأصل من «حركة القوميين العرب» فإن القضية أصبحت بين أهل البيت الواحد. وهنا تجددت التناقضات والتعارضات التي حدثت في «حركة القوميين العرب». وبعد الانشقاق الثاني نشأت «الجبهة» الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين.

*** ولكن نايف حواتمة من تنظيم «شباب الثأر». وأعتقد ان لا خلافات معه على الصعيد العسكري، أو على الأقل ان الخلاف معه كان حول قضايا سياسية.**
ألم يكن في الإمكان تطويق الخلاف السياسي للحؤول دون الانفجار فالانفصال؟

- كان لدى نايف حواتمة وبعض الرفاق وجهات نظر في قضايا سياسية وتنظيمية. وكانوا يخطِّئون القيادة التقليدية ويعتبرون ان وجهات نظرهم ومواقفهم

هي السليمة.

كانوا يقولون مثلاً «إن منظمة التحرير الفلسطينية هي إفراز بورجوازي» واننا عندما نراهن عليها نكون كأننا نعيد للبورجوازية شرعيتها في قيادة حركة التحرر الوطني. وبالتالي فإن علاقتنا مع منظمة التحرير يجب أن تكون علاقة صراع في الدرجة الأولى.

وكانوا يقولون أيضاً «إن قيادة منظمة التحرير إنما هي قيادة يمينية تقليدية» وان «الجبهة» باعت ما تمثله بسبب موقفها المترامي أو الذيلي من منظمة التحرير.

وكانوا يرون أن التجمع الوطني في الأردن لا فائدة منه وأدانوا «الجبهة» لأنها دخلت فيه. وهذا التجمع الذي سموه «التجمع اللاوطني» شجعنا قيامه واشتركنا فيه ليكون عملية إسناد لحركة المقاومة الفلسطينية، تماماً كما الحال في لبنان بالنسبة إلى الحركات الوطنية التي تساند المقاومة، وهذا التجمع كان يضم سليمان النابلسي وبعض الوجوه الوطنية الأردنية وقد أفاد كثيراً.

وعلى الصعيد العربي كانوا يطالبون بخوض معركة مع الانظمة البورجوازية الصغيرة في تلك الفترة. وكانوا يعتبرون موقف عبدالناصر يمينياً متخاذلاً.

وعلى الصعيد العالمي كانوا على يسار ماوتسي تونغ بمئة متر وخاضوا معارك كتابية ضد الاتحاد السوفياتي.

وبالنسبة إلى الأمور العسكرية طرحوا مبدأ اعتماد الديمقراطية التامة في البناء العسكري وانه لا يجوز أن تقام قواعد عسكرية في الأردن لأن القتال يجب أن يتم داخل الأرض المحتلة.

وكانوا يرون ان البورجوازية الصغيرة يمكن أن تكون معسكراً وطنياً لمرحلة معيَّنة لكن بعد ذلك لا بد من خوض معركة معها.

ولقد ناقشتُ نايف حواتمة كثيراً وبنفس طويل لأنني ضد حدوث الانقسامات، قلت له: لنفترض أن تصنيفك للقيادة بأنها تقليدية ويمينية وتريد تشكيل حزب ماركسي لينيني في الساحة الفلسطينية فمن هو الذي يقف في وجه هذه المفاهيم؟ ثم هل أن البنية الطبقية لجماهيرنا هي بنية بورجوازية؟ ان حجم البورجوازية في تنظيمنا قليل جداً أما الاكثرية الساحقة فإنها عبارة عن عمال وفلاحين وهؤلاء

هم النوعية التي تريد أن تبنيها ايديولوجياً وتزرع في رأسها المفاهيم الماركسية اللينينية. ان الباب مفتوح أمامك ولا ضرورة للانشقاق. أُحرث في هذا التنظيم ودعه يتحول كما تريد. إزرع مفاهيمك في مخيم الحسين وفي مخيم الوحدات وبين المقاتلين.

لكن الرفيق نايف وبعض الرفاق معه لم يتجاوبوا وقالوا إن «الجبهة الشعبية» حزب بورجوازي صغير لا يمكن أن يتحول إلى حزب ثوري وان أقصى ما يمكنه تحقيقه هو فرز عناصر يسارية ماركسية - لينينية تستطيع المساهمة في بناء شيء جديد.

وهذه النقطة كانت بالنسبة إليَّ نقطة خلاف رئيسي. فأن يدين أو ينتقد ممارسة معيَّنة أو موقفاً معيَّناً في التنظيم شيء، وان يعلن ان «الجبهة الشعبية» لا يمكن أن تصبح تنظيماً ثورياً شيء آخر.

والذي دفع إلى انهاء التعاون ثم الانشقاق هو أن هؤلاء الرفاق قالوا إن وجودهم في «الجبهة الشعبية» مؤقت بهدف استخراج العناصر التي يمكن تشكيل تنظيم ماركسي-لينيني منها.

ولقد حسمنا الأمر بعدما وجدنا أنه لا موجب لاستمرار هذه البلبلة. وحدث الانشقاق. وهم يعتبرون ان اليسار الفلسطيني ولد يوم الانشقاق ويحتفلون بذلك على أساس أنه قبل هذا الانشقاق لم يكن هنالك يسار في الساحة الفلسطينية.

وهنالك عوامل خارجية لعبت دوراً. كما أن «فتح» كانت مستعدة لمساندة أي ظاهرة من هذا النوع.

وبعد ذلك أصبحت «الجبهة الشعبية الديمقراطية» في موقع المتبني كل المواقف السابقة التي كانت تقول «الجبهة» بصحتها، إنما بنوع من الذيلية والتبعية بالنسبة إلى التجمع الوطني في الأردن وإلى قيادة منظمة التحرير، والعلاقات العربية عموماً.

*** لكن نايف حواتمة استطاع استقطاب عناصر كثيرة داخل التنظيم. مما هو تفسيرك لذلك؟**

– الواقع ان نسبة العناصر التي استقطبوها لم تكن كبيرة. عدد لا بأس به من المثقفين والطلاب أي في القطاع الذي تلعب الكلمة فيه دوراً.

وأفادت المساندة التي لقيها حواتمة والمنشقون معه من «فتح». وهذا ذكاء من «فتح» لأنها في مساندتها للمنشقين لم تكن تتطلع إلى ضرورة قيام حزب ماركسي–لينيني في الساحة الفلسطينية بقدر ما كان يهمها إضعاف «الجبهة الشعبية».

*** كيف عالجتم تأثير الانقسامات، وما هو التفسير الذي أعطيتموه لجماهير «الجبهة الشعبية» وقواعدها؟**

– لقد حدث رد فعل وهذا لا يمكن إنكاره، وترك الانشقاق آثاراً سلبية. كما كانت له آثاره بالنسبة إلى فعاليتنا السياسية وفعاليتنا العسكرية حيث ان الرفاق واجهوا قضية داخلية، وأصبحوا مشدودين إلى التناقض القائم.

وفي العادة اننا نعالج مثل هذه المسائل بطريقتين. الأولى تثقيفية وفيها نشرح للرفاق عبْر التعاميم والندوات الموقف الذي نعيشه وتنزل القيادة إلى القاعدة الحزبية وتجيب عن أي تساؤل تطرحه القاعدة. والتركيز في مثل هذه الحال يكون على القواعد التي تعيش حالة من البلبلة وتتخذ موقفاً وسطياً.

أما الطريقة الثانية فهي تصعيد النشاط السياسي والعسكري بحيث تثبت «الجبهة» وجودها كحركة وطنية تخدم الجماهير.

وفي أي حال ان الانشقاق الذي حدث أمكن تجاوز ذيوله بسرعة نتيجة وعي القواعد وتوافر قناعات.

*** بعد الانشقاق الأول والانشقاق الثاني هل بدأت «الجبهة» الشعبية مرحلة جديدة من العملِ أم أنها استمرت معتمدة الخط السابق الذي قاد إلى الانقسام؟ استطراداً، هل ان مرحلة ما قبل الانقسام شيء ومرحلة ما بعد الانقسام شيء آخر؟**

- بعد الانشقاق الثاني كان ل ابد من مؤتمر عقدته «الجبهة» في شباط/ فبراير 1969 وفيه عالجنا مسألة الانشقاق وأوضحنا البرنامج السياسي والتنظيمي وقمنا بعملية بلورة لموقفنا، وخرجنا من المؤتمر ببرنامج سياسي وتنظيمي وهيئات قيادية ومركزية جديدة حلت فيها عناصر محل العناصر المنشقة.

ولا يمكنني القول إننا خرجنا بجديد. الذي حدث كان عملية مراجعة استوجبت إدخال بعض التعديلات. الجديد هم الذين كانوا يطالبون به.

*** كيف أصبحت البنية التنظيمية لـ«لجبهة الشعبية» بعد الانقسامات؟**

- بعد الانقسامات وجدْنا ان التنظيم الأساسي في «الجبهة» هو تنظيم «شباب الثأر» أي الرفاق الذين هم في الأصل من «حركة القوميين العرب» مع بعض التطعيم من عناصر جديدة على صعيد الكوادر.

ولأن تنظيم «حركة القوميين العرب» ليس بالتنظيم الثوري فإن طموحنا أصبح تحويل تنظيم «الجبهة الشعبية» إلى تنظيم الطبقة العاملة. ومن هنا ان أي شخص لا يعرف خصوصية تكوين «الجبهة» ويقرأ نظامها الداخلي يكتشف انه ليس نظاماً داخلياً لجبهة إنما هو نظام داخلي لحزب... وحزب ثوري.

*** ما دمتم حافظتم على التسمية أي «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» فلماذا لا يكون هنالك حوار مع المنشقين من أجل العودة، وبذلك تصبح التسمية منطقية معنى ومغزى؟**

- أريد أن أؤكد مرة أخرى إن «الجبهة الشعبية» في واقعها الحالي هي بمثابة حزب ثوري. ونحن لسنا مستعدين لإعادة الأمر إلى ما كان عليه لكننا على أتم الاستعداد للإنصهار سياسياً وعسكرياً أمام الجماهير في جبهة عريضة على أن نحافظ على إستقلالنا التنظيمي والأيديولوجي. جبهة جادة تاريخية رافضة للتسويات. ونحن على أتم الاستعداد أيضاً لأن نمارس فعاليتنا العسكرية والسياسية بإسم هذه

«الجبهة» الجديدة وليس بإسم «الجبهة» الشعبية.

*** هنالك أسئلة وتساؤلات كثيرة بالنسبة إلى الثورة الفلسطينية الأولى، ثورة 1936.**
هل يمكن أن تروي كيف تابعتَ تلك الثورة، وهل يمكن أن تقارن كثائر عصري بين الثورة الفلسطينية الأولى ثم الثورة الثانية التي نشأت وانطلقت في الستينات. ومن خلال المقارنة ما هو في تحليلك التطور الذي حدث وما هي الثغرات التي شهدتْها الثورتان الاولى والثانية؟

– عندما قامت ثورة 1936 كنتُ في مدينة اللد. وكنتُ في ذلك الوقت فتى في حوالى الحادية عشرة من العمر. اللد مدينة ساحلية والثورة قامت وتمركزت في المناطق الجبلية من فلسطين مثل منطقة جبال نابلس وتسميتها الشائعة «جبل النار». داخل اللد لا أتذكر انه كانت هنالك ثورة ولا أتذكر انني شاهدت ثواراً. الذي أتذكره هو الناحية الجماهيرية من المسألة بمعنى كيف كانت الجماهير في ذلك الوقت وبالتحديد، الجماهير في اللد. أتذكر كيف ان الجماهير كانت تتجمع في المقاهي في انتظار أن تسمع من الراديو نشرة الاخبار. وأتذكر مشاعر الناس وهم يسمعون أن الثوار اصطدموا بقوات بريطانية أو القوا قنابل قتلت جنوداً بريطانيين. وأتذكر أ21ن لجأنا تألفت في اللد وقيل لي عندما استفسرتُ إنها لمساندة الثورة وان لجاناً أخرى تألفت في بقية القرى والمدن الفلسطينية للغرض نفسه.

وأتذكّر أيضاً أن موجة من الاغتيالات حدثت في تلك الفترة وأنهم كانوا يرددون ان الحاج أمين الحسيني وراء ذلك. وأذكر ان حديث الناس في اللد تركّز لمدة طويلة في تلك الفترة حول حادثة اغتيال أحد الذين كنا نسميهم «الكبار» وهو من آل الهنيدي. وأذكر ان حديث أهل اللد تطرّق بعد ذلك إلى محاولة اغتيال تعرّض لها تاجر مسيحي كبير من آل رزق حيث أصيب برصاصة في صدره، ومحاولة أخرى تعرّض لها شخص من عائلة «الكرزون»، وأتذكر ان الناس كانوا

يقولون إن الثلاثة ينتمون إلى الحزب المعارض أي حزب النشاشيبي، وان اطلاق النار عليهم كان بسبب أنهم يتعاونون مع الانكليز.

انني أتذكر تماماً الأجواء التي توحي ان في البلد ثورة. من هذه الأجواء إقفال المحلات أحياناً نتيجة الدعوة إلى الاضراب. ومنها أيضاً تجمهُر الناس في المقاهي والاماكن العامة عند ساعات بث نشرات الاخبار. وأتذكر أيضاً انني كنت ألاحظ الارتياح على وجوه الناس عندما يسمعون أنباء طيبة عن نشاطات الثورة، أما عندما كانوا يسمعون أنباء غير طيبة فإن ذلك كان ينعكس تجهماً على وجوههم. وأتذكر حماسة الناس في ذلك الوقت للثوار الذين يقاتلون في الجبال.

وأتذكَّر كيف انني شعرتُ بحماسة الفتى ان الثورة ضرورية وذلك كرد فعل على ما كنت الاحظ ان الانكليز يقومون به حيث كانوا يقتحمون البيوت بحثاً عن مطلوبين.

ان الانطباع الذي أذكر أنه رسخ في ذهني وأنا فتى عن الثورة الأولى أنها بين وطنيين وخونة. ولم أكن واعياً تماماً للوضع الحزبي السائد آنذاك. كل ما أتذكره أنهم كانوا يرددون في استمرار اسم الحزب العربي (أي حزب الحاج أمين الحسيني) واسم الحزب المعارض (أي حزب النشاشيبي) لكن بعدما كبرتُ وقرأتُ لكثيرين من أمثال عز الدين دروزه وعبدالوهاب الكيالي وناجي علوش تبيَّن لي أن تلك الفترة شهدت صراعاً عنيفاً بين القوى السياسية. وبعد هذه القراءات أيضاً اتضحت لي معالم هذا الصراع ووضْع الحزبين وأثرهما على الحياة السياسية في فلسطين.

إن ولاءات الشعب الفلسطيني في تلك الفترة كانت موزعة على هذين الحزبين. وتخطر في بالي الآن واقعة لا أتذكر تماماً متى حدثت لكنها في أي حال بين 1936 و 1943. وقتها كنت مع أهلي في زيارة عمي في القدس، وكانت المناسبة دينية وأعتقد إنها عيد النبي موسى. وما زال عالقاً في ذاكرتي منظر أمواج البشر. كان الناس بالألوف يهتفون «سيف الدين الحاج أمين». بعد ذلك تبين لي أن الحاج أمين الحسيني كان في تلك الفترة زعيماً بلا منازع ورمزاً وطنياً. انني أتذكَّر وأتكلم.

والذي إنطبع في ذهني عن تلك الفترة إن الحاج أمين كان مستقطِباً قاعدة جماهيرية عريضة. كانت الجماهير ملتفة حوله بتلقائية. أما تحليلنا اليوم لتلك الفترة فمسألة أخرى.

ملحق

من الثمانيني الارثوذكسي الفلسطيني جورج حبش
إلى الثمانيني الارثوذكسي اللبناني غسان تويني*

«يطيب لي المشاركة في تكريم الإعلامي الكبير غسان تويني، هذا الرجل الثمانيني من العمر الذي ما برح يشق ويعبر طريق المعرفة والنهضة والتغيير، فمن حق أمثال الرجل أن يكرَّموا ويُحتفى بهم على نتاجاتهم وعطاءاتهم وإبداعاتهم المعرفية والثقافية اعترافاً ووفاء وإنصافاً لأدوارهم النهضوية.

في هذه المناسبة ثمة اعتراف ابتداء لا بد منه، وهو أن غسان تويني، اختلفنا معه او اتفقنا، ظاهرة ثقافية في لبنان وفي محيطه، تركت بصماتها ومفاعيلها في الحياة اللبنانية، وفي الوسط الفكري والسياسي. وعلى هذا الابتداء نبني تقديرنا واحترامنا للرجل، فإذا جاز لنا ان نذكر أهم أعمدة الصحافة والإعلام في وطننا العربي فنحن أمام غسان تويني عميداً وصرحاً وعَلَماً في الصحافة والإعلام، وإذا ما تناولنا أهم المثقفين في وطننا العربي فغسان تويني في مقدمهم دراية ومعرفة وثقافة. وإذا راقبْنا مواقف وبراعة السياسيين وجدالهم وحيويتهم فإن غسان تويني يُمثّل حالة أكثر جدلاً ووزناً وسلوكاً ومثابرة وبراعة. وإذا تأمَّلْنا الفضاء العربي عبر سياسييه

---

* قبيل رحيله بأربعة أشهر لبى الدكتور جورج حبش طلب صحيفة الجزيرة السعودية التي يترأس تحريرها الاستاذ خالد المالك لكتابة مقالة عن الاستاذ غسان تويني الصحافي والمفكر الاكاديمي والسياسي نائباً ووزيراً ودبلوماسياً تنشرها في ملف تكريمي خاص عنه. وهكذا جاءت مقالة الارثوذكسي الفلسطيني الثمانيني جورج حبش عن الارثوذكسي اللبناني الثمانيني غسان تويني واحدة من أدبيات وكتابات حكيم الثورة في أواخر حياته مما يجعل نشرها في هذا الكتاب يعطي فكرة عن نظرة حبش الى لبنان كمنارة فكرية وثقافية وإعلامية وليس فقط ملاذاً عابراً للثورة الفلسطينية.

ومثقفيه فغسان تويني كان عَلَماً حاضراً في قلب الحضارة العربية مجتهداً ومبادراً ومحاوراً عنيداً، وديمقراطياً ليبرالياً، مخلصاً لوطنه لبنان، شجاعاً متسامحاً، عروبياً، فهو الانسان الجامع، الاكاديمي، السياسي، الصحافي الإعلامي الكبير، المفكر المجتهد. ولمّا كان كذلك فلا عجب أن نشاهد صرحاً إعلامياً وصحافياً وثقافياً عربياً، صرح **النهار** ونقيض الظلام نهض بالواقع السياسي والثقافي اللبناني من حالة الى حالة أكثر تنوعاً وعمقاً ومعرفة وجدالاً وصخباً، مما لا يترك المجال لأي متجرد أن ينكر بصمات هذا الرجل وإسهاماته في مسار الحياة الثقافية والسياسية اللبنانية.

وفي هذا السياق مَنْ مِنّا نحن السياسيين والمثقفين لم يكن حريصاً على متابعة جريدة **النهار** وملحقها الثقافي ومقالتها اليومية للأستاذ غسان تويني، ومحاولة معرفة الحقيقة، أو الوصول الى رؤية أو معلومة، او موقف أو متابعة للرأي الآخر. فقد كان غسان السياسي منسجماً مع نفسه ومع منهجه السياسي رؤية وممارسة، وصاحب مدرسة فكرية وسياسية طبَعها بأفكاره ومواقفه وتحليلاته واطلاعاته المتنوعة عبْر اكثر من ستين عاماً مليئة بالعطاء والاجتهاد والمثابرة. ومن مسؤوليته على جريدة النهار البيروتية ساهم في حرية الصحافة وانطلاقتها المتنوعة الاتجاهات والمشارب. وقد تخرَّج من هذا الصرح العديد من السياسيين والمثقفين والاعلاميين الذين ما إنفكوا يستحضرون مواقف الرجل وسياساته وأفكاره مساهمين في إغناء وإثراء الحياة الثقافية والسياسية اللبنانية.

لقد كان غسان تويني صاحب منهج ليبرالي، برع في استخدامه براعة القادر المتمكن معرفة وثقافة، حججاً وبراهين ومعطيات، وهو أمر له لا عليه.

نشأ غسان تويني قومياً سورياً وورث عن أبيه صرحاً إعلامياً أجاد في تطويره وإعلائه، ولم يكن عمره يزيد عن خمسة وعشرين عاماً حين جلس على مقاعد البرلمان اللبناني، ويعتلي مناصب وزارية ودبلوماسية وهو في مقتبل العمر، يقارع السياسة والسياسيين مما أهلَّه أن يكون سياسياً بإمتياز، وإعلامياً بإقتدار. فقد كانت النشأة والمسار مع الحقل العام الوطني السياسي، فإقتحم عالم السياسة عن جدارة وشجاعة وتمرُّس.

ولعل معاصرته سياسياً لأكثر من مرحلة سياسية في لبنان ومعايشته الحرب الاهلية في لبنان قد صنعت منه سياسياً بارزاً، مجرباً لا مراقباً، مشاركاً لا متفرجاً، دفعتْه الى اكتشاف الخصوصية اللبنانية وتوظيفها في مواقفه وتحليلاته وقناعاته بما يرفع من شأن لبنان الحر الديمقراطي العربي، وبما يرفع عنه عبء المشاكل الاقليمية والدولية، والنأي به عن حروب الآخرين.

لقد كان غسان تويني يمثل وجهة النظر الاخرى في السياسة، وهي الوجهة الليبرالية، وهذا حق له والتي ترى في لبنان تلك الخصوصية التي تعلو على كل الاعتبارات السياسية والقومية، حيث لبنان الحر الديمقراطي الليبرالي المحايد.

مرة أخرى قد نختلف معه لكننا لا نتجاوزه. فهو من رموز ورواد الفكر المستنير، ورواد النهضة الفكرية والسياسية، ومن رافعي لواء الديمقراطية والحداثة، ومن وطنيي لبنان العربي.

أن تختلف معه فهذا ليس نقيصة، وان تتفق معه وعليه فهذا ليس دلالة على وسع حججه وبراهينه وقدراته... ذلك هو غسان تويني، الذي لا تستطيع إلاَّ أن تكون معه في وطنيته وعروبته وشموليته وثقافته نحو مشروع نهضوي عربي. قد تختلف معه في هذه التفصيلة أو تلك في الرؤية او الموقف أو السياسة لكن دون أن تهبط من مكانته في الفضاء العربي، ودون أن تقلل من شعاع فكره ومواقفه.

أخيراً يبقى غسان تويني المكلوم، المحافظ على رباطة جأشه لحظة وداع ولده جبران، وهي لحظات قد سجلت نبل الرجل وإتزان مواقفه، ودعوته الى التسامح والهدوء وتغليب الحكمة. تلك اللحظات قد رفعته أكثر الى مكانة الكبار والعقلاء والحكماء في لبنان درءاً للفتنة ووعياً للمخاطر.

تحية من الاعماق الى هذا الرجل الثمانيني، وانا أناهزُه السن، الذي ما زال ممسكاً بقوة الارادة والهدف، شموع المعرفة، وشعلة النهار، ومعول البناء والتجديد، والتغيير والديمقراطية.

له مني كل التقدير والدعاء بالصحة والعافية».

الأعمال الشاملة لفؤاد مطر

● **لبنان.. اللعبة واللاعبون والمتلاعبون، سنوات الحرب ومراحل الصراع والتحالفات من الوجود الفلسطيني الى الدور السوري الى الحل السعودي،** (512 صفحة بالحجم الموسوعي مرفَقة بالوثائق والصور) - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - مركز فؤاد مطر للإعلام والتوثيق والاستشارات والدراسات، لندن، 1993.

● **موسوعة حرب الخليج، اليوميات: وثائق الازمة والحرب، الحقائق، في جزئين من ألف صفحة بالحجم الموسوعي يغطيان الحرب الاولى على العراق رداً على غزو الكويت يوماً بيوم مع تثبيت للوثائق المهمة لمرحلة ما قبل الغزو وبعده.** المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - مركز فؤاد مطر للإعلام والتوثيق والإستشارات والدراسات، لندن، 1994.

● **تحت ظلال الذكريات، تأملات في تجارب الحكم والسياسة والدبلوماسية والإستشهاد وتوريث الزعامة من زمن الملك فاروق الى زمن عبد الناصر والخميني.** دار الناشر العربي الدولي، بيروت، 1997.

● **زلازل مصر السياسية، الزلزال الاول (يليه إثنان): من مقدمات وفاة عبد الناصر الى مقدَّمات حكم السادات.** نشر مشترك: المؤسسة العربية للدراسات والنشر- دار الناشر العربي الدولي، بيروت، 1999.

● **المصالحة الوطنية الاولى في السودان، إنتكسوها... أم إنتكست؟ الكتاب الأول في سلسلة عن الأحوال السودانية تحمل تسمية «حلو، مر... تاريخ ما لن**

يهمله التاريخ عن السودانيين العسكر والأحزاب». نشر مشترك: المؤسسة العربية للدراسات والنشر- دار الناشر العربي الدولي، بيروت، 1999.

● **سنوات نميري بحُلوها... ومرِّها، الكتاب الثاني في سلسلة عن الأحوال السودانية تحمل تسمية «حلو، مر... تاريخ ما لن يهمله التاريخ عن السودانيين العسكر والأحزاب»**. دار الناشر العربي الدولي، بيروت، 2001.

● **التضامن العربي ذلك المستحيل، محاضر ووثائق لقاءات رسمية على مستوى القمة حول خفايا محاولة يتيمة لجمع الصف العربي الذي مزَّقه السادات للمرة الاولى شر تمزيق، وكيف يفكر أهل القرار عند خروج أحدهم على القضية**. دار الناشر العربي الدولي، بيروت، 2002.

● **موطئ قلم في «الشرق الاوسط»**

- **المجموعة الاولى: من 1994 الى 1999 سنوات التنافر والتباغض من المحيط الى الخليج**
- **المجموعة الثانية: من 2000 الى 2002 سنوات التنبُّه والندم بعد فوات الأوان**
- **المجموعة الثالثة: من 2003 الى 2005 سنوات غزو الصديق للأمة إستكمالاً لغزوة الشقيق للشقيق**

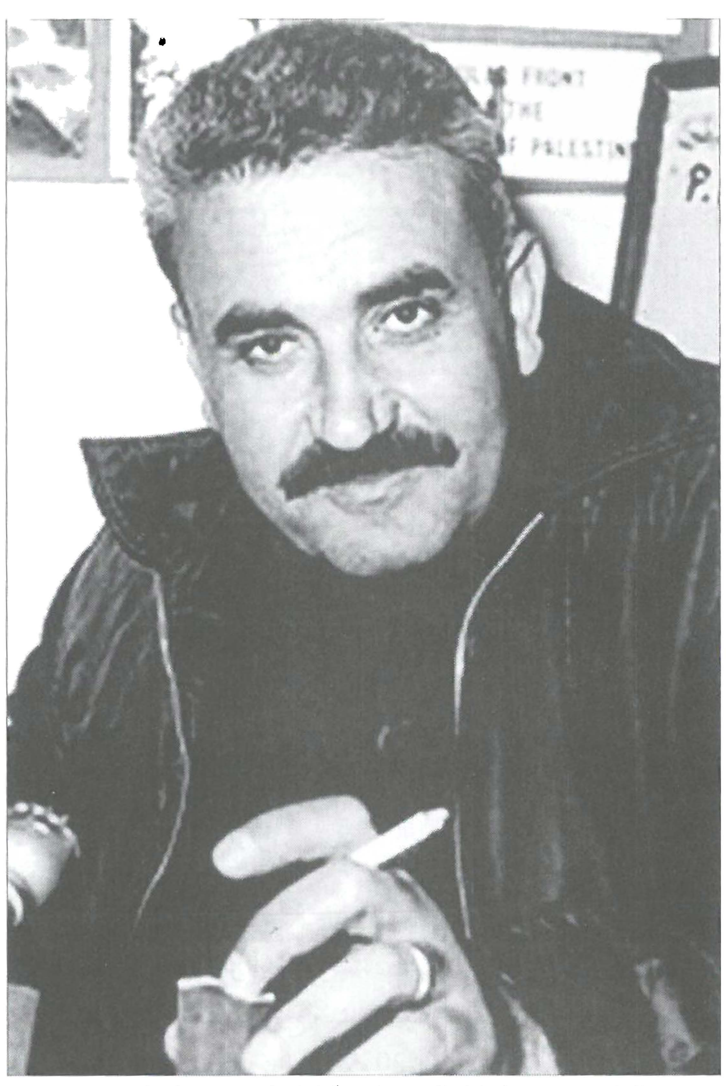
نشر مشترك: الدار العربية للعلوم - دار الناشر العربي الدولي، بيروت، 2005.

● **للقائد التاريخي قلم ينصفه، الشيخ التويجري عن الملك عبد العزيز ومحمد حسنين هيكل عن جمال عبد الناصر**. نشر مشترك: الدار العربية للعلوم - دار الناشر العربي الدولي، بيروت، 2006.

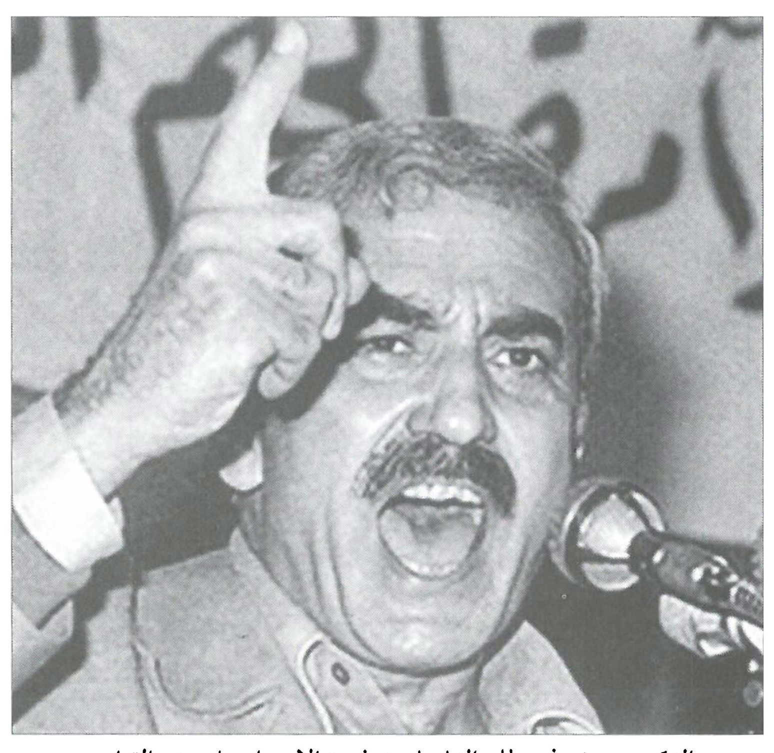
● **الخميني.. وصدَّام، القرار الصعب والخيار الأصعب. وقائع ووثائق حول مرحلة من التفاوض التعجيزي أعقبت وقف اطلاق النار بين العراق الصدَّامي وإيران الخمينية ولماذا إعتبر الإمام الخميني القبول بوقف اطلاق النار كمن يتجرع السم**، نشر مشترك: الدار العربية للعلوم - دار الناشر العربي الدولي، بيروت، 2007.

كتب نافدة

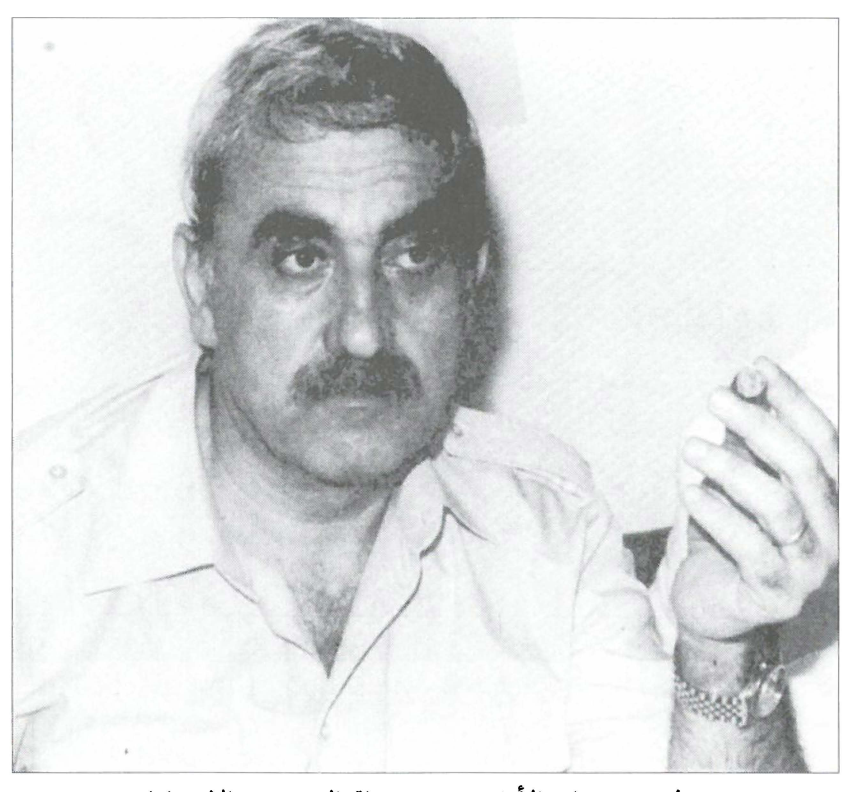
- **رؤساء لبنان، من شارل حلو الى شارل دباس**، دار النهار، بيروت، 1964.
- **اليمن جمهورية و51 إماماً**، ملف النهار، 1968.
- **السودان في ظل اشتراكية الضباط**، ملف النهار، 1969.
- **ماذا بعد جمال عبد الناصر ؟** ملف النهار، بيروت، 1970.
- **الحزب الشيوعي السوداني. نحروه أم انتحر؟**، دار النهار، بيروت، 1971.
- **أين أصبح جمال عبد الناصر في جمهورية السادات؟** دار النهار، بيروت، 1972.
- **روسيا الناصرية ومصر المصرية**، دار النهار، بيروت.
- **بصراحة عن عبد الناصر (حوار مع محمد حسنين هيكل)**، دار القضايا، بيروت، 1975.
- **الثورة الثانية في ليبيا**، دار القضايا، بيروت، .1976
- **صدَّام حسين (السيرة الذاتية والحزبية وأسلوب الحكم)**، بالعربية والفرنسية (سيكومور-باريس)، والانكليزية (منشورات هاي لايت-لندن)، 1979.



الدكتور حبش في ايام السبعينات بكامل التصميم على الصمود

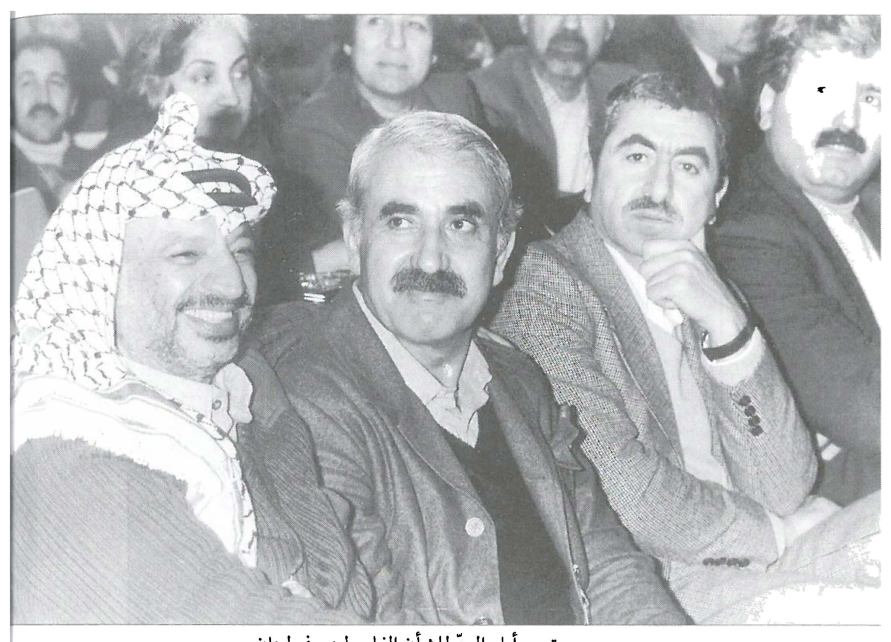


الدكتور حبش في مطلع الثمانينات: ذروة الاصرار على عدم التراجع



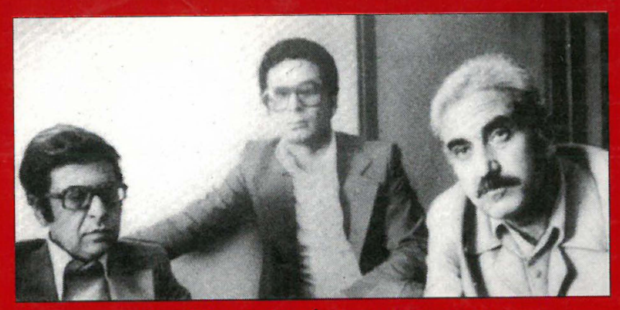
... وفي زمن خيبات الأمل من بعض رفاق الدرب بعد الانقسامات

انجز طبع هذا الكتاب
على مطابع هايدلبرغ، بيروت-لبنان



صورة من أيام العزّ للشأن الفلسطيني في لبنان

من اليسار: الرئيس ياسر عرفات، الدكتور جورج حبش، نايف حواتمه، جورج حاوي، وذلك خلال مشاركتهم في اجتماعات «المجلس الوطني الفلسطيني» في الجزائر يوم 20 نيسان (أبريل) 1987. عدا حواتمه، بات الباقون في ذمة الله: عرفات قضى مسموماً على الأرجح، حبش قضى مريضاً ومقهوراً، حاوي قضى اغتيالاً.



جورج حبش وبسام أبو شريف وفؤاد مطر

ذات يوم شتاء 1975 وكانت الغيوم الداكنة بدأت تملأ سماء العلاقات اللبنانية-الفلسطينية اتصلتُ بالزميل بسام أبو شريف رئيس تحرير مجلة **الهدف** التي تنطق بإسم «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» أطلب منه أن نلتقي.

كانت الفكرة التي طرحتُها على الزميل بسام تتلخص في الآتي:

هنالك أشخاص تاريخيون قد يكون من الصعب عليهم كتابة مذكراتهم وهم في خضم العمل النضالي. كذلك إنه من الصعب على هؤلاء أيضاً أن يتقاعدوا في سن معيَّنة ويتفرغوا لكتابة المذكرات مثل غيرهم من زعماء السياسة ورجال الفكر والفن والمسرح وأصحاب التجارب عموماً.

وفي ضوء ذلك ما الذي يمنع من أن يبادر كاتب وينوب عن هؤلاء في كتابة ذكريات تجمع بين السيرة الذاتية والمذكرات معاً وبالتحديد ما هو متاح من هذه المذكرات.

والدكتور جورج حبش هو واحد من هؤلاء. وبما أن أحداً منكم ككُتَّاب وصحافيين ملتزمين ومقاتلين لن تقدموا على مثل هذا الأمر، واذا أقدمتم فإنكم ستكتبون بالحد الأقصى من التحفظ باللغة الحزبية والملتزمة...

فـؤاد مطـر


ISBN 978-9953-74-208-3